

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الرابع والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء
بإشراف
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الرابع والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩٠

« سورة الرحمن »

آياتها ثمان وسبعون

نزلت سورة الرحمن بمكة عند الجمهور ، وغيرهم يقول : إنها مدنية ، ولكل من القولين رواته ، وتسمى (عروس القرآن) كما أخرجه البيهقى عن على - كرم الله وجهه - أن رسول الله ﷺ قال : « لكلِّ شىءٍ عروس ، وعروس القرآن سورة الرَّحمن » ووجه مناسبتها لسورة - القمر - التى سبقتها ، أنها مُفَصِّلة لما أُجمل فى آخرها ، قال الإمام جلال الدين السيوطى : لمَّا قال - سبحانه - فى آخر ما قبلها « بل السَّاعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » ثم وصف - سبحانه - حال المجرمين فى سقر وحال المتقين « فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ » فصَّل هذا الإجمال فى هذه السورة أتم تفصيل على الترتيب الوارد فى هذا الإجمال فبدأ بوصف مرارة الساعة والإشارة إلى شلتها ، ثم وصف النار وأهلها ، ولذا قال سبحانه : (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) ولم يقل : الكافرون أو نحوه، لاتصاله معنى بقوله تعالى هناك : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ » ثم وصف الجنة وأهلها ، ولذا قال تعالى فيها : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) وذلك هو عين التقوى ، ولم يقل : لمن آمن أو أطاع أو نحوه ، لتوافق الألفاظ فى التفصيل ، ويعرف بما ذكر أن هذه السورة شرح لآخر السورة قبلها . اهـ .

وبالجملة فقد اشتملت كلتاهما على أحوال المؤمنين والكافرين فى الدنيا ، ومآل أمرهم فى الآخرة .

وتكرر فى هذه السورة قوله - تعالى - : (فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) للتقرير بالنعم المختلفة المعدودة فكلما ذكر - سبحانه - نعمة أنعم بها ، وبَّخ على التكذيب بها ، كما يقول الرجل لغيره : ألم أُحْسِنْ إليك بأن خَوَّلْتُكَ فى الأموال ، ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ، فيحسن فيه التكرار لاختلاف ما يقرَّرُ به ، وهو كثير فى كلام العرب وأشعارهم ، قاله السيد المرتضى فى كتابه (الدُّرَرُ والغُرَر) وذكرَ عديدًا من القصائد فيها مثل هذا

التكرار ، قال الآلُوسِيُّ : ولا يرد على ما ذكره أن هذه الآية قد ذكرت بعد ماليس نعمة ، لما ستعلمه إن شاء الله فى محله : ونحن سنبيِّن ذلك – إن شاء الله تعالى – .

مقاصد هذه السورة الكريمة :

بينت هذه السورة أنه – تعالى – علَّم نبيه القرآن وأوحاه إليه ، وأنه خلق كل إنسان وعلمه كيف يُعَبِّر عن مقاصده ويبينها ، وأنه سيَّر الشمس والقمر بحساب دقيق ، بحيث لايعتريهما خلل فى ذاتهما أو فى دورانهما ، وأن النجم من النبات – وهو ما ليس له ساق ، – والشجر – وهو ماله ساق – يخضعان لإرادته وتكوينه – تعالى – وأنه رفع السماء ، وشرع الميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنه جعل الأرض مقرًّا للناس ، وأنبت لهم فيها أشجار الفاكهة وحبوب الطعام كالحنطة والشعير ، وأنبت لهم مصادر العطر كالريحان ، وأنه خلق الإنسان من طين جاف كالفخار ، وخلق الجن من لهيب النار ، وأنه رب المشرقين والمغربين ، وأنه أرسل البحرين – المالح والعذب – وجعلهما يلتقيان ، ومع هذا لا يبغى أحدهما على الآخر فيبطل خاصيته وصفاته بحاجز وحائل من قدرة الله – تعالى – ، وأنه يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، وسيأتى شرح ذلك بمشيئة الله – تعالى – وأن لله السفن الجارية فى البحر ، ولها قلاع مرفوعة كأنها أعلام – أى جبال – وأن كلَّ من على الأرض فانٍ ويبقى الله ذو الجلال والإكرام ، وأنه تعالى : له شئون كثيرة فى خلقه كل يوم ، فلذا يسأله من فى السموات والأرض ماهم بحاجة إليه ، وأنه – سبحانه – سيقصد مجازاة خلقه يوم الدين ، وليس له شاغل يشغله عن ذلك ، وهناك ينادى المنادى : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) هرباً من الحساب والعقاب (فَانفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) ولا سلطان لكم ، فالملك يوم القيامة والحكم لله الواحد القهار ، يُرسَل على الكفار يومئذ لهبٌ من النار فلا ينصر بعضُهم بعضاً ، فإذا انشقت السماءُ وانصدعت يومئذ ، وكان لها لون أحمر كحمرة الورد ، وكانت صافية كالدهن المذاب (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ) لأن هذا وقت صدور أمر الله بعذابهم ، بعد أن شهدت عليهم جوارحهم ورأوا ذنوبهم واضحة فى كتبهم .

ثم بين الله حال المؤمنين ، فذكر أنهم صِنْفَان ، أحدهما أرفع درجة من الآخر .

فأولهما : له جنتان فى أعلى درجات الجنان ، وثانيهما : له جنتان أدْنى من السابقتين ، ووصف هذه الجنان وصفاً رائعاً يبين ما فيهن من جلائل النعم التى يتنعم بها هؤلاء وأولئك ، جعلنا الله - تعالى - منهم ، وختم السورة بقوله - جل وعلا - : (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾)

المفردات :

(عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) : علَّمه النطق المعرب عما فى الضمير .

(بِحُسْبَانٍ) : بحساب وتدبير .

(يَسْجُدَانِ) : يخضعان لتدبيره – تعالى – .

التفسير

١ – ٦ – (الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ *) :

ذكر الله – سبحانه – فى هذه السورة كثيرًا من نعمه وآياته ، وأول مابدأ به منها القرآن العظيم ؛ لأنه أعظم النعم شأناً وأرفعها مكانة ، فعليه تدور السعادة الدنيوية والأخروية فما من غاية تنتهى إليها آمال الأمم إلا موجودة وسائلها فيه ، وهو منهج الحق وصراطه المستقيم ، وآية الآيات على نبوة نبينا محمد ﷺ إلى يوم القيامة ، ولذا تكفل الله بحفظه فقال – جل وعلا – : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[1] .

---

(١) سورة الحجر الآية : ٩

وقد أسندت نعمة تعليم القرآن وغيرها من النعم إلى (الرحمن) الذى هو أحد أسماء الله الحسنى ؛ لأنها من رحمته - تعالى - بعباده .

ولم يذكر فى الآية مَن الذى علمه الرحمنُ القرآنَ ، قيل : هو الإنسان ، فإن تعليمه من نعمه - جل وعلا - على البشر جميعاً ، فمن حفظه ووعاه فإنه يعلمه غيره ، وهكذا إلى أن تقوم الساعة ؛ لأن الله - تعالى - تعهد بحفظه .

وقيل : المراد بالإنسان محمد ﷺ ، فإنه أول من تعلمه من البشر ، وهذا مآله إلى الرأى السابق ؛ لأنه ﷺ علمه الصحابة ، والصحابة علَّموه مَنْ بعدهم ، وهكذا .

والمراد من تعليم القرآن : تعليم ألفاظه ومعانيه على وجه يعتد به ، وقد يصل العلم بمعانيه إلى العلم بالحوادث الكونية من إشاراته ورموزه ، فإنه - تعالى - لم يغفل شيئاً فيه ، أخرج أبو الشيخ فى كتاب (العظمة) عن أبى هريرة مرفوعاً « إن الله لوْ أغفل شيئاً لأغفل الذرَّة والخردلة والبعوضة » .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم : عن ابن مسعود : أنزل الله فى هذا القرآن علم كل شىء ، ولكنَّ علمنا يقصر عما بين لنا فيه .

وقال أبو العباس المرسى : جَمَعَ القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحط به علماً إلَّا المتكلم به ، ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر الله به - سبحانه - .

وقال ابن عباس : لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله - تعالى - .

وقال الفخر الرازى : المراد بتعليم القرآن جعل الشخص بحيث يعلم القرآن . فهذه الآية كقوله تعالى : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ »(١) .

والنعمة التالية لتعليم القرآن أنه تعالى (خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) وقدم تعليم القرآن على خلق الإنسان وتعليمه البيان ، للإشارة إلى أنه أفضل النعم ، وأنه يبين الغاية من خلق

---

(١) سورة القمر من الآية : ١٧

الإنسان ـ وهى عبادة الله ـ قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »[(١)] .
والمراد من الإنسان : الجنس ، وبخلقه : إنشاؤه على ما هو عليه من القُوى الظاهرة والباطنة ، والمراد من تعليمه البيان : تمكين الإنسان من التعبير عما فى نفسه وفهم بيان غيره ، وهو الذى يدور عليه تعليم القرآن ، وقيل تعليمه البيان : تعليمه التكلم بلغات مختلفة .
وقيل المراد بالإنسان : آدم ، وبتعليمه البيان تعليمه الأسماء كلها ، أو علم الدنيا والآخرة ، والنعمة الثالثة جاءت فى قوله ـ تعالى ـ :(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) أى : الشمس والقمر يجريان بحساب دقيق فى مدارهما وبروجهما ومنازلهما ، فتختلف بذلك الفصول والأوقات ، وتُعلَم السنون ، والشهور ، والأيام ، والليالى ، وتنتظم بذلك أمور أهل الأرض .

ويرى علماء الفلك أن القمر يدور حول الأرض ، وأن الأرض تدور حول الشمس ، وأن الشمس تدور حول شىء لم يعلم حتى الآن .

والنعمة الرابعة جاءت فى قوله ـ تعالى ـ :(وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) والمراد بالنجم : النبات الذى ينجم ويظهر فوق الأرض ، وليس له ساق كالبقول ، والمراد بالشجر : ماله ساق تحمله كالنخل والتفاح ونحوهما ، والمراد بسجودهما : خضوعهما لله ـ تعالى ـ فيما أراده منهما تكوينا وإثمارا ، ويعزى هذا الرأى إلى ابن عباس وابن جبير وأبى رُزَين .

وقال مجاهد وقتادة : النجم : نجم السماء ، وسجوده مع الشجر خضوعهما لأمر الله ـ تعالى ـ وإرادته فيما أراده منهما .

والرأى الأول أحسن وأحرى بالقبول ، فإن ذكر النجم مع الشجر يستدعى أن يكون النجم من النبات ، وهو الأجدر ببلاغة القرآن[(٢)] .

---

(١) سورة الذاريات الآية : ٥٦

(٢) واعلم أن لفظ « الرحمن » مبتدأ ، والجمل التى بعده أخباره ، ويقدر ضمير فى كل من (الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان) لِيَرتبطا بالمبتدأ ، والتقدير : الشمس والقمر يجريان بحسبانه ، والنجم والشجر يسجدان له .

(وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) : وشرع العدل ، يقال : وضع الله الشريعة ــ أى شرعها .

(أَن لَّا تَطْغَوْاْ فِى الْمِيزَانِ) : لئلا تتجاوزوا فيه الحق .

(وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ) واجعلوا وزنكم بالعدل .

(وَلَا تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ) : ولا تنقصوه .

التفسير

٧ ــ ٩ ــ (وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَن لَّا تَطْغَوْاْ فِى الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ) :

المراد من السماء هنا : ما جعلت الكواكب زينة لأولاها ، كما فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ »[1] والمراد من رفعها : الرفع الحسِّى بحيث نراها فوقنا بعيوننا أو الحسِّى والمعنوى ــ أى الرتبىّ ــ فمرتبة السماء ومقامها عال ؛ لأنها منشأُ أحكامه ــ تعالى ــ وأوامره ، ومسكن ملائكته ــ عز وجل ــ فما أعظم ملكوت القادر العليم .

---

(١) سورة الملك من الآية : ٥

والمراد من وضع الميزان : شرع العدل فى الأمر كله ، والعدل هنا : هو تقويم الأمور وجعلها متلائمة متعادلة لا إفراط فيها ولا تفريط ، ولا تفاوت يُخل بها ويفسدها ، وهو بهذا المعنى يشمل خلق السموات والأرض وغيره ، وفى هذا المعنى يقول ﷺ : « بالعدل قامت السموات والأرض »[1] فأنت ترى السموات متلائمة فى تكوينها لا عيب فيها ، وفى ذلك يقول الله – سبحانه –: « الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً مَّاتَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ »[2] أى : هل ترى فى خلقها من شقوق وعيوب تخل بها ؟

ويقول الآلوسى فى تفسيرها : أى : شرع العدل وأمر به ، بأن وفر على كلٍّ مُسْتَعِدٍّ مُسْتَحقَّه ، ووفَّى كل ذى حق حقه ، حتى انتظم أمر العالم واستقام ، ثم قال :

فالمراد عدل الله – عز وجل – وإعطاؤه – سبحانه – كل شىء خلقه . ثم قال : هذا المعنى مروى عن مجاهد والطبرى والأكثرين .

وقال الحسن بن الفضل : معناه وشرع القرآن ؛ لأن فيه بيان ما يحتاج إليه ، وعن ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك أن المراد بالميزان : ما يعرف به مقادير الأشياء ، من الآلة المعروفة والمكيال المعروف ونحوهما ، فمعنى (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) : خلقه مخفوضاً على الأرض ، حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم المنزلة من السماء ، وما تعبدهم به من التسوية والتعديل فى أخذهم وعطائهم .

ونرى أن المعنى الأول هو المناسب ، حتى لا يتكرر مع قوله – تعالى –: (وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ) كما أنه هو المناسب لما قبله من رفع السماء ، أما ميزان الناس فلايناسب ما قبله ، والفجوة واسعة بينهما .

---

(١) انظر تفسير روح المعانى للآلوسى ، ج٩ ص١٠١ تفسير قوله تعالى :(ووضع الميزان) فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) سورة الملك الآية : ٣

ومعنى قوله : (أَن لَّا تَطْغَوْاْ فِى الْمِيزَانِ) وشرع العدل فى الأمر كله ؛ لئلا تجوروا على الناس فى أموركم المختلفة .

ومعنى : (وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ) وأقيموا وزنكم فى بيعكم وشرائكم بالعدل ، ولا تبخسوا فى الكيل والميزان .

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا) : خلقها موضوعة مخفوضة عن السماء حسبما يشاهد .

(لِلْأَنَامِ) : للإنس ، أو لهم وللجن .

(ذَاتُ الْأَكْمَامِ) صاحبة الأكمام ، وهى أوعية الطلع ، مفردها كِمّ بكسر الكاف .

(وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ) أىْ : ذو التبن .

(وَالرَّيْحَانُ) : هو على وزن فَعلان من لفظ الرِّيح ، ويطلق على كل مشموم طيب الرِّيح من النبات ، كما يطلق على الريحان المعروف وعلى الرزق .

(آلَاء) : الآلاء النعم ، واحدها أَلَى بفتح الهمز وقد يكسر ، مثل مِعًى وأمعاء .

التفسير

١١ – ١٣ – (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المراد بالأنام : الناس فى رواية عن ابن عباس ، وفى رواية أخرى عنه وعن قتادة وابن زيد وغيرهم : الأنام : الحيوان كله – كما فى مجمع البحرين . وقال الحسن : الإنس والجن . والظاهر أنها مخلوقة للإنس والجن والحيوان والسمك ، فإنهم جميعاً يعيشون فيها ، وينتفعون بخيراتها ، وقال صاحب القاموس : الأنام : الخلق .

وقد عقب الله هذه الآية بقوله : (فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) ففيهما تقرير للآية التى قبلها ، من أن الأرض موضوعة للأنام ، فقد تضمنت بعض النعم التى أعدها الله فى الأرض لمنفعتهم ، من فاكهة كثيرة يتفكهون بها ، ونخل ذات أكمام – أى : أوعية تشتمل على الطَّلْع الذى يحوله الله إلى بلح فرطب فتمر ، فيتغذون بثمارها ويتفكهون ، وحَبٌّ ذى تبن وريحان ، فالحب : القمح والشعير والذرة وغيرها ، وهو غذاء للإنس والجن والحيوان ، والتبن لغذاء الحيوان ، والريحان : كل مشموم طيب الريح من النبات ، منعش للنفوس كالورد والياسمين ، كل ذلك وغيره أعده الله لمنفعة الأنام ، فما أعظم نعم الله على خلقه وأحقه بالشكر عليها ، وبذل الوسع فى طاعته ، ثم يخاطب الله الكافرين من الثقلين الداخلين فى عموم الأنام بقوله موبخا لهم ومنكرًا عليهم (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) الفاء فى قوله : (فَبِأَيِّ آلَاءِ) لترتيب التوبيخ والإنكار بعدها على كفرهم بالنعم التى قبلها ، مع أنها من موجبات الإيمان ، أى : إذا كانت هذه نعماً عليكما أيها الثقلان ، فبأى نعم الله الذى رباكما تكفران ، بإنكار كونها من نعم الله عليكما ، أو إنكار دلالتها على وجود الله ووحدانيته ، أخرج ابن جرير والخطيب فى تاريخه وغيرهما بسند صحيح : عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا ، فقال : « مالى أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم ؟ ما أتيت على قوله – تعالى – : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلا قالوا : لا بشىء من نعمك ربَّنا نكذِّب فلك الحمد » .

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ ﴾

المفـــردات :

(صَلْصَالٍ) : طين جاف له صلصلة ـ أى صوت ـ إذا نقر .

(كَالْفَخَّارِ) : الفخار : الخزَف ، وهو ما أحرق من الطين حتى تحجر .

(مِن مَّارِجٍ) : من لهب خالص ، وسيأتى بسط الآراء فيه .

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) : أرسل البحرين العذب والملح .

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) : رب مشرق الشمس ومغربيها ـ صيفًا وشتاءً .

(بَرْزَخٌ) : حاجز .

(اللُّؤْلُؤُ) : صغار الدر .

(وَالْمَرْجَانُ) كبار الدُّر ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى بيانه .

التفسير

١٤ - ١٦- (خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

الآيتان الأُوليان تمهيد لتوبيخ الثقلين على إخلالهما بموجب شكر النعمة المرتبطة بذاتى كل واحد منهما ، والمراد بالإنسان : آدم - عليه السلام - وقيل الجنس الشامل لأولاده ، فهم مخلوقون من الصلصال تبعاً لأبيهم .

والصلصال : الطين اليابس الذى له صلصلة - أى : صَوْت - إذا نُقِر ، وقيل : هو الطين المنتن ، من صَلَّ اللحم إذا أنتن ، والفخار : هو ما أحرق من الطين حتى تحجر ، ويسمى الخزف .

واعلم أن أصل آدم ومنشأه هو التراب ، ثم تحول التراب إلى طين ، ثم إلى حمأ مسنون - أى : طين يابس منتن ، ثم إلى صلصال كالفخَّار ، ولهذا ترى منشأه يختلف باختلاف الآيات ، فتراه فى بعضها التراب ، وفى أخرى الطين أو الحمأ المسنون أو الصلصال فلا تعارض بينها ؛ لأن كلا منها يتكلم على طور من أطوار خلقه ، ولا عجب فى أن يكون منشأ الإنسان ما ذكر ، فإن الله على كل شىء قدير ، وهو الذى يقول للشىء : كن فيكون .

وجاء فى الآية الثانية : أن الجانَّ خُلق من مارج من نار ، فالجانُّ أبو الجن ، وهو إبليس كما قاله الحسن ، وقال مجاهد : هو أبو الجن وليس إبليس ، كما جاء فيها أنه خلق من مارج من نار ، ولفظ (مِن) فى قوله تعالى : (مِن مَّارِجٍ) يشير إلى مبدأ خلقه . وفى قوله : (مِن نَّارٍ) يبين المراد من مارج ، فإن أصله من مرج الشىء إذا اضطرب واختلط ، فيصدق على النار وغيرها ، فجاء قوله : (مِن نَّارٍ) ليبينه ، ومعناه كما قال الجوهرى فى الصحاح : نار لادخان لها خلق منها الجان ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - ومجاهد : أنه اللهب الذى يعلو النار ، يختلط بعضه ببعض ، أحمر ، وأصفر ، وأخضر - كما نقله القرطبى .

وقد عقب الله هاتين الآيتين باستفهام إنكارى توبيخى ، وذلك فى قوله تعالى : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) أى : فبأى نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان ؟ ، أتكفران بمنشأ خلقكما ، أم تكفران بغيره ؟ .

١٧ – ١٨ – (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المراد بالمشرقين : مشرق الشمس شتاء وصيفاً ، وبالمغربين : مَغْرِباها كذلك ، وقيل : المشرقان مشرق الشمس ومشرق القمر ، والمغربان كذلك ، وهذه الآية كناية عن أنه – تعالى – ربها ورب ما بينها من الكائنات .

والمعنى : الذى أبدع ما مرّ من النعم هو مالك المشرقين والمغربين وما بينهما ، لايشاركه فى خلقها أحد ، وحيث كانت المشارق والمغارب ومابينها من إبداعه – تعالى – وداخلة فى ملكوته ، فمن حقه أن يُعبد ولا يُجحد ولا تُكذب آلاؤه ونعمه ، ولهذا أنكر على المشركين تكذيبهم لآلائه ونعمه ، ووبخهم على هذا التكذيب بقوله – جل وعلا – بعد هذه الآية – : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) أتكذبان بخلقه المشارق والمغارب وما بينها من الكائنات واختلاف الفصول وما يترتب عليه من المنافع والمصالح ، أم تكذبان بغير ذلك ؟ اللهم لا بشىء من آلائك نكذب ، سبحانك فلك الحمد .

١٩ – ٢٣ – (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

قال الآلوسى فى معنى : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) أى : أرسلهما وأجراهما ، من مرجت الدابة فى المرعى ، أى : أرسلتها فيه ، أى : أرسل الله البحر الملح والبحر العذب .

ونقول : إن هذا هو التفسير الموافق لقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا »[1] ولقوله : « وَمَا يَسْتَوِي

---

(١) سورة الفرقان الآية ٥٣

الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا »[1] .

أما قول الحسن : إنهما بحرا فارس والروم ، فإنه مخالف لصريح الآيات المذكورة ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

وقد ذكر الله أن هذين البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لايبغيان ، فأما التقاؤهما فيكون عند مصاب الأنهار فيها ، وأما البرزخ الذى بينهما فهو القدرة الإلهية التى منعت أن يبغى الماءُ الملح على العذب فيحوله إلى ملح ، وأن يبغى العذب على الملح فيحوله إلى عذب ، فيبقى كلاهما يؤدى وظيفته التى خلق لها .

وهل هذا الحاجز هو أنه ـ تعالى ـ خلق الأرض كروية ، وأن الارتفاع الكروى هو الذى يمنع أن يبغى أحدهما على الآخر ، ويدل على ذلك أن الشمس تشرق فى أرض قبل أخرى ، وتغرب فى أرض قبل أخرى ، بسبب هذا التكوير ، فيبقى كل منهما فى مكانه لا يبغى على الآخر ، ولا يمنع لقاؤهما فى طرفيهما من أن يبقى ما وراء هذا اللقاء حافظاً لخواصه ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ولاشك فى أن جاذبية الأرض تبقى كل شىء فى مكانه ، من جبال ورمال وإنسان وحيوان وغير ذلك ، مع سرعة الأرض الخارقة فى دورانها ، ولو كانت الأرض مسطحة لبقيت الشمس مشرقة فيكون الوقت كله نهاراً لا ليل فيه ، ولا بقى شىءٌ من البحرين محافظاً على خواصه ، فإنه يندمج كل منهما فى الآخر .

وقيل : إن البرزخ الذى بينهما هو الأرض اليابسة التى بينهما ، وحينئذ يكون المراد من لقائهما تقابلهما وتجاورهما ، والذى قلناه هو المتعين ، وفيه من الدلالة على قدرة الله مافيه ، ويلاحظ أنه لا توجد أرض يابسة عند مصاب الأنهار كما زعموا ،

---

(١) سورة فاطر من الآية : ١٢

وذكر الله – تعالى – أنه يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، ويقول بعض المفسرين : إن اللؤلؤ صغار الدر ، والمرجان كباره ، ونقل ذلك عن الإمام على – رضى الله عنه – وقيل : عكس ذلك ، وروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – وروى عن ابن مسعود أن المرجان الخرز الأحمر ، وعلى هذا يكون اللؤلؤ شاملا لكباره وصغاره ، وهذا هو المتعارف بين الناس .

وجاء فى الآية أن كليهما يخرج من البحرين الملح والعذب ، مع أن المعروف هو وجودهما فى الملح دون العذب ، وأجاب القرطبى عن ذلك بقوله : إن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما ، كقوله – تعالى – : « يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ » وإنما الرسل من الإنس دون الجن : قاله الكلبى وغيره : وقال الزجاج : قد ذكرهما الله ، فإذا أخرج من أحدهما شىء فقد خرج منهما ، وهو كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا [1] » ولكن أجمل ذكر السبع ، فكأن مافى إحداهما فيهن ، إلى غير ذلك مما ذكره القرطبى .

والحق أنه يخرج من كليهما كما أظهره العلم الحديث ، فقد جاء فى هامش التفسير المنتخب الذى أخرجته وزارة الأوقاف المصرية ، تعليقاً على قوله تعالى : « وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا » [2] – جاء فى الهامش – « أن اللؤلؤ كما يستخرج من أنواع معينة من البحر الملح ، يستخرج أيضاً من أنواع أخرى صدفيات من الأنهار ، فتوجد اللآلىء فى المياه العذبة فى انجلترا واسكتلاندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان » إلخ بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة ، ويدخل فى ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية ، كالماس الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة بالبرقة ، ويوجد الياقوت كذلك فى الرواسب النهرية .

---

(١) سورة نوح الآيتان : ١٥ و ١٦

(٢) سورة فاطر من الآية : ١٢

ومن الأحجار شبه الكريمة التى تستعمل فى الزينة حجر التوباز ، ويوجد فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة ومنتشرة فى البرازيل وروسيا (الأورال) وسيبريا - ثم قال : ويغلب أن يكون أصفر أو بنيا ، إلى آخر ما جاء فى الهامش المذكور من الأحجار الكريمة التى تستخرج من الرواسب النهرية .

والمعنى الإجمالى للآيتين : أرسل الله - تعالى - البحرين الملح والعذب ، وجعلهما يلتقيان فى أطرافهما ، وهذا الالتقاء والتمازج فى الأطراف لم يجعل أحدهما يبغى على الآخر بإيصال خاصيته فى داخله ؛ لأنه - تعالى - جعل بينهما حاجزا يمنع التمازج الكلى بينهما ، وهذا الحاجز هو تدرج أجزاء الأرض إلى الارتفاع الكروى ، وهذه الكروية مع سرعة دورانها الرهيبة تبقى كليهما فى داخله محافظاً على خاصيته ، ومثل ذلك كمثل الشمس تشرق فى أرض وبلاد أخرى وتغرب كذلك ،وهذا بسبب الارتفاع الكروى الذى يحجز إشراقها أو غروبها فى أرض قبل أخرى ، بالإضافة إلى جاذبيتها الشديدة ، فهى تجذب كل ما فوقها إليها ، حتى لا يفارق مكانه بسبب سرعتها ، ولو كانت غير كروية لا ختلط الملح بالعذب ، وأبطل كل منهما خاصية الآخر ، ولأشرقت الشمس على جميع بقاعهـا فى وقت واحد ، فيبقى الزمن كله نهارا لا ليل له ، وكل ذلك بقدرة الله الذى أحسن كل شىء خلقه ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ومن العلماء السابقين من قال : إن الحاجز بين البحرين هو الأرض اليابسة بينهما ، وجعل التقاءهما تقاربهما ، وهذا غير متيسر فى كل الأنهار ، بل المشاهد هو التلاقى الامتزاجى فى الأطراف ، حتى لايكون الماءُ العذب آسنا متغير الطعم واللون ، فماقلناه أولاً هو الحق ، وصدق الله - تعالى - إذ يقول : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ .. »[١] .

ويعقب الله - تعالى - هاتين الآيتين بقوله : (فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) مما لكما فى ذلك من المنافع ، وبقوله : (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) أى : يخرج من البحرين الملح والعذب اللؤلؤ والمرجان ، على ما تقدم بيانه ، فكما جعل الأرض

---

(١) سورة فصلت من الآية : ٥٣

تنبت لنا الزروع والأشجار ، والحب ذا العصف والريحان ، جعل البحرين لنأكل منهما لحمًا طريًّا ، ونستخرج منهما حلية نزدان بها ، فكل من البرّ والبحر أساس حياتنا وزينتنا ، وكل ذلك آلاء ونعم لايمكن تكذيبها وإنكارها ، فبأيها تكذبان أيها الثقلان .

(وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾)

المفـــردات :

(وَلَهُ الْجَوَارِى) : وله السُّفُن – جمع جارية .

(الْمُنشَآتُ) : المرفوعات الشرع كما قال مجاهد ، من أنشأه بمعنى رفعه ، ويدخل فى هذه الجوارى السفن التى تدار بمحركات آلية ، فهى له – سبحانه – .

(كَالْأَعْلَامِ) : كالجبال المرتفعة ، جمع علم وهو الجبل الطويل .

(فَانٍ) : هالك .

(وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ) : ويبقَى ذاته ، وسيأتى بيانه فى موضعه .

(كُلَّ يَوْمٍ) : المراد باليوم : الزمان مطلقاً : فيصدق على كل وقت ولحظة .

(هُوَ فِى شَأْنٍ) أى : فى أمر من الأمور العظيمة ، ويجمع على شئون .

التفسير

٢٤ - ٢٥ - (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

ولله من النعم على عباده السفن التى تجرى فى البحر ، تحمل الناس وما يتَّجرون فيه من قطر إلى قطر ، ومن مكان إلى مكان ، وهذه السفن منشآت - أى : مرفوعات كالجبال فوق ظهر الماء بقدرته - تعالى - فهى ملك له - جل وعلا - فهو الذى خلق ما صنعت منه ، وهو الذى يجريها فوق سطح الماء ويحفظها من الغرق فى رحلاتها الطويلة والقصيرة ، فيسلم أهلها وتجارتهم ، فهى لله خلقًا وملكًا وتصرفًا ، ولا يمنع ذلك ملك الناس لها ، فهو الذى أرشدهم إلى كيفية صناعتها وإجرائها فى مختلف البحار ، فكل أمورها ترجع إلى الله - تعالى - فهى وأهلها لله رب العالمين ، فبأى نعم الله فى شأن السفن الجوارى تكذبان يا معشر الثقلين .

٢٦ - ٢٨ - (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

الضمير فى عليها يرجع إلى الأرض التى وضعها الله للأنام ، والمراد من وجه الله : ذاته - جل وعلا - فإضافة لفظ « وجه » إلى لفظ « رب » إضافة بيانية ، فكأنه قيل : ويبقى ربك ، واستعمال الوجه بمعنى الذات مجاز مرسل ، ومثل ذلك شائع فى لغة العرب ، وهذا هو تفسير الخلف : مَنْعًا لاعتقاد أن لله وجهًا يشبه وجه الإنسان ، وأنه جزءٌ من ذاته ، فإن ذلك كفر ، قال تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ » .

أما السلف فيقولون : إن لله وجهًا لا كوجه الإنسان ، فالمماثلة للخالق ممنوعة ، وذهب بعض العلماء إلى تأويلات أخرى . وحسب القارئ ما تقدم .

وجلالُ الله عَظَمته ، وإكرامه - تعالى - هو تنزيهه عمَّا لا يليق به من الشرك وسواه من صفات النقص ، كما تقول : أنا أكرمك عن كذا أى : أنزهك عنه ، والله - تعالى - متصف بهما ، سواءٌ أجَلَّه ونزهه الناس ، أم لم يفعلوا ذلك .

والله - تعالى- يعدد فى هذه السورة آلاءه ونعمه ، فما وجه ذكر الفناء للخلق فى آلائه - تعالى - ؟ والجواب : أن الفناء بابٌ للبقاء والحياة الأبدية فى جنة عرضها السموات

والأرض ، وقال الطيبي : المراد من قوله تعالى : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) ملزوم معناها ؛ لأنها كناية عن مجيء وقت الجزاء ، وهو من أَجَلِّ النعم على المؤمنين ، ولذلك خص الجلال والإكرام بالذكر ؛ لأنهما يدلان على الإثابة والعقاب ، تبشيرًا للمؤمنين ، وتحذيرًا للعباد من ارتكاب ما يترتب عليه العقاب ، ولذلك رتب عليها بالفاء قوله تعالى : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) .

٢٩ - ٣٠ - (يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ[1] * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المراد بمن فى السموات والأرض : أهلهما من الملائكة والإنس والجن وغيرهم ممن لا يعلمهم إلَّا الله - تعالى - فالله - سبحانه وتعالى - لم يجعل الجنة كعرض السموات والأرض لأهل هذه الأرض ، بل لهم ولغيرهم من المكلفين فيهما ممن نعلمه ومن لا نعلمه ، فقد جاء فى القرآن أن الأرض سبع كالسموات ، قال تعالى فى آخر سورة الطلاق : « اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ » وكان ابن عباس يرى أن الأرضين الأخرى بها مكلفون مثلنا ، كما أن سكان السماء لا نستطيع القطع بأنهم الملائكة فحسب ، فقد يكون فيهن سكان عقلاء مكلفون ، فلهذا جعل الله الجنة كعرض السماء والأرض ، لكى تتسع للمكلفين فيهن ، والله - تعالى - أعلم .

والمراد من كل يوم كل وقت من الأوقات ، ولحظة من اللحظات ، والمراد من الشأن الشئون المختلفة ، فهو مفرد فى معنى الجمع ، كما فى قوله تعالى : « ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » أى : أطفالًا .

وشئون الله تعالى فى كل لحظة لا تعد ولا تحصى ، كما أن كلامه لا يعد ولا يحصى ، قال تعالى : « وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ »[2] ، ومن شئونه - جلَّ وعلا - أنه ينشئ أشخاصًا ويفنى آخرين ، ويغفر

(١) كل يوم هو فى شأن كلام مستأنف ، وكل ظرف لما بعده .

(٢) سورة لقمان من الآية : ٢٧

ذنوبًا.ويفرج كروبًا ، ويرفع أقوامًا ويخفض آخرين ، ويجيب دعاء بعض الداعين ، ولا يجيبه لآخرين ، ويعز ويذل ، ويرزق ويمنع ، إلى غير ذلك من شئون الكون .

وقال الكلبى : شأنه سوق المقادير إلى المواقيت ، وروى أن عبد الله بن طاهر ، دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكلت على ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لى ، قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ » وقد صح أن الندم توبة ، وقوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » ، وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وقوله : « وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ » فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز أن لا يكون الندم توبة فى تلك الأمة ، ويكون توبة فى هذه الأمة ؛ لأن الله — تعالى — خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم ، وقيل : إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ، ولكن على حمله ، وأما قوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فإنها شئون يبديها ولا يبتديها[1] ، وأما قوله : « وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ » فمعناه : ليس له إلا ما سعى عدلًا ، ولى أن أجزيه بواحدة ألفا فضلًا ، فقام عبد الله وقبل رأسه وسوغ خراجه ، أى : أمر بعطائه والإنعام عليه .

وبعد هذا نقول : إن تلك الآراء ما هى إلا نماذج من شئونه — تعالى — وشئونه لا تحصى والمعنى الإجمالى للآيتين : يسأل الله أهل السموات وأهل الأرض عن حاجاتهم وضروراتهم؛ لأنه هو الذى خلقهم ، وهو الذى يجيب مسألتهم ، كل وقت هو — سبحانه — فى شئون كثيرة لا تحصى من شئون ملكوته ، ومن جملتها سماع أسئلة عباده والبت فى أسئلتهم ، إيجابًا أو سلبًا ، فالله — سبحانه — لا يغفل عن ملكوته طرفة عين ، فلهذا لا ترى نقصًا فى سمواته وأرضه ، فهو « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ »[2] ، فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان ، وهو الذى تسألونه فيحقق أسئلتكم

---

(١) أى شئون مما كتبه الله — تعالى — ، يظهرها فى الحين الذى قدر ظهورها فيه ، ولا يبتدئ إرادتها والعلم بها .

(٢) سورة الملك الآيتان : ٣ و٤

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾)

المفـــردات :

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) : سنأخذ فى جزائكم فقط أيها الإنس والجان .

(أن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَار السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) : أن تخرجوا من جوانبها .

(إِلَّا بِسُلْطَانٍ) : إلَّا بقوة وقهر .

(شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ) أى : لهب من نار ونحاس مذاب يصب فوقكم .

(فَلَا تَنتَصِرَانِ) : فلا تمتنعان من العقوبة بهما ، وسيأتى فى الشرح بيان ما تقدم .

التفسير

٣١ - ٣٢ - (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

جاء فى الآية السابقة أنه - تعالى - (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ) أى : كل وقت هو فى شئون ملكوته التى لا تحصى ولا تعد ، ومن جملتها شئون الثقلين ، وجاءت هذه الآية لتبين أنه - سبحانه - سيفرغ من شئونهم الدنيوية من الخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير

سائر أحوالهم - سيفرغ من ذلك كله - إلى شأن واحد هو جزاؤهم يوم القيامة على أعمالهم فى الدنيا .

ويجوز أن يكون المعنى : سنفرغ من شئون الدنيا كلها - ومنها شئون الثقلين فيها - إلى جزائهم فى الآخرة فإنه - سبحانه - سيبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وتبرز الخلائق وتظهر بالبعث والحشر بعد موتهم وفنائهم ، أى : سيحيون لجزائهم منه - تعالى - .

ومعلوم من الدين بالضرورة أنه - تعالى - وقد انتهى من شئون الدنيا - فإنه معنى بشئون الآخرة - وما أكثرها - فليس شأنه فى الآخرة مقصوراً على جزاء الثقلين ، فلهذا تعتبر الآية من قبيل الوعيد للإنس والجن بأنه - تعالى - سيعاقبهم إن كفروا وعصوا ربهم ، وبهذا المعنى قال ابن عباس - رضى الله عنهما - .

وقيل : إنَّ فرغ قد تكون بمعنى قصد ، وهو المراد هنا ، ونقل هذا عن الخليل والكسائى والفراء ، وعلى هذا يكون المراد حينئذ : تعلق الإرادة بجزائهم تعلقًا تنجيزيًا .

وقد عبر الله عن الإنس والجن بالثقلين لعظم شأنهما ، ولذا يقال : العظيم القَدْر ثَقَلٌ ، ومنه قوله ﷺ : « إنى تارك فيكم الثَّقَلَيْن - كتاب الله وعِتْرتى »[1] ، وقيل : لأنهما مثقلان بالتكاليف .

والمعنى الإجمالى للآيتين : سنقصد تنجيز عقابكم يوم القيامة ، ونريد تحقيق ما أردناه لكما أزلًا أيها الثقلان إن لم تؤمنوا ، فبأى نعمة من نعمى التى مِنْ جملتها التنبيه على ما ستلقونه يوم القيامة ، لعلكم تتقونه بإيمانكم - فبأى نعمة منها - تكذبان .

٣٣ - ٣٤ - (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

---

(١) انظر : مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٤ ، والطبرانى ج ٥ ص ١٩٠ حديث ٤٩٨٠ ، والحاكم ج ٣ ص ١٤٨

المعشر : الجماعة ، وقد ذكر الله فى الآية السابقة مايفيد أنه سيعاقب الجن والإنس إن كفروا ، وجاءت هذه الآية لتعجيزهم عن الهَرَب للتخلص من عقابه .

والمعنى : ياجماعة الجن والإنس أنتم راجعون إلينا بعد الموت لعقابكم على كفركم ومعاصيكم ، فإن قدرتم على الهرب والتخلص منه بالخروج من جوانب السموات والأرض ، فاخرجوا منها وخلصوا أنفسكم من عقابى ، لا تخرجون منها إلا بسلطان وقوة وقهر ، أنتم لا تقدرون على ذلك . عاجزون عن تحقيقه ؛ لأنكم لا سلطان ولا قدرة لكم على تحقيقه ، فأنتم محصورون فى ملكوتى فى حين لا ملكوت لغيرى حتى تخرجوا إليه - إن قدرتم - فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان وتكفران ، ومنها تحذيركم من العقاب لتتقوه .

٣٥ - ٣٦ - (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

شواظ النار : لهيبها الخالص من الدخان ، وبهذا المعنى أخذ ابن عباس ، وقيل : هما جميعًا ، حكاه الأخفش عن بعض العرب ، والنحاس : هو دخان النار على القول الأول ، وقيل : هو النحاس المعروف ويسمى الصُّفْر ، يذاب ويصب على رءوسهم ، وروى هذا : مجاهد وقتادة ، وكذا ابن عباس فى رواية عنه .

وهذه الآية جواب عن سؤال مقدر عن الداعى للفرار أو عمًّا يصيبهم .

والمعنى : يرسل عليكما أيها الثقلان لهب شديد من نار ، كما يرسل عليكما نُحَاس مذاب يصب فوق رءوس الكافرين منكما ، فلا تمتنعان من العذاب ، ولا تستطيعان الهرب منه لو أردتموه ، فبأى نعم ربكما تكذبان ،ومنها تنبيهكم إلى أنكم لا تستطيعون الفرار من العذاب إن بقيتم على كفركم .

(فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) أى: كالوردة فى الحمرة ، لامعة كالدهان ، والدهان قيل إنه مفرد كالدهن ، وقيل : إنه جمع دهن ، وقال الحسن : أى كالدهان المختلفة ؛ لأنها فى الإعراب خبر ثان لكانت أو نعت لوردة .

(يَطُوفُونَ) : يترددون .

(حَمِيمٍ آنٍ) : ماء شديد الحرارة .

(بِالنَّوَاصِي) : جمع ناصية وهى : مقدم الرأس .

٣٧ - ٤٢ - (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

انشقاق السماء : انصداعها يوم القيامة ، وبعد انشقاقها تكون حمراء كالوردة ، لامعة كالزيت ، أو صافية كصفائه .

وجواب إذا تقديره . كان ما كان مما يعجز عنه البيان .

ومعنى هذه الآيات : فإذا تصدعت السماء ، فصارت حمراء كالورد . صافية كالزيت ، يكون من الأهوال ما لا يقدر على وصفه البيان ، فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان ، ومنها ما تقدم من ذكر أهوال يوم القيامة ، توعية للثقلين لحملهما على الوقاية من تلك الأهوال بالإيمان ، فيوم تكون السماء كذلك لا يسأَلُ عن ذنبه إنس ولا جان ، كما قال تعالى : « وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »[1] لأن الله حفظها عليهم وسطرتها الملائكة فى كتبهم .

يعرف هؤلاء المجرمون بعلاماتهم ، من سواد الوجوه وزرقة العيون ، كما قال تعالى : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ »[2] ، وكما قال – سبحانه – : « وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا »[3] فتأخذ الملائكة بشعور مقدم رءوسهم وبأقدامهم ، فيقذفونهم فى نار جهنم فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان يا معشر الثقلين .

وجعل ذلك من نعم الله عليهم من جهة أن فيه تحذيرًا لهم من هذا المصير ، وحملًا لهم على الإيمان .

فإن قيل : إنه قد جاء فى القرآن أنهم يُسأَلون ، كقوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[4] ، فالجواب : أن فى يوم القيامة الطويل مواقف ، ففى بعضها يسألون ، وفى آخر لا يسألون ، وقال ابن عباس : حيث ذكر السؤال فهو سؤال توبيخ ، وحيث نفى فهو استخبار محض ، يعنى : أن سؤالهم لمعرفة أخبار جرائمهم لا يحصل ؛ لأن الله وملائكته يعلمونها ، ولأنها مكتوبة فى صحائفهم ، ولأن أعضاءهم تشهد عليهم

(١) سورة القصص من الآية : ٧٨
(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٠٦
(٣) سورة طـه من الآية : ١٠٢
(٤) سورة الحجر الآيتان : ٩٢ و ٩٣

٤٣ - ٤٥ - (هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

(هَٰذِهِ جَهَنَّمُ): مقول لقول مقدر ، وهذا المقدر معطوف على قوله تعالى : (يُؤْخَذُ) أى : ويقال للمجرمين ، أو مستأنف جوابًا لسؤال مقدر ، أى : ماذا يقال لهم حينئذ ، والذى يقول لهم هذا هم الملائكة الذين وكل إليهم تعذيبهم .

والمعنى : يقول الملائكة الذين وكل إليهم عقابهم توبيخًا وتأنيبًا ومضاعفة لآلامهم - يقولون لهم- حين يأخذون بنواصيهم وأقدامهم ويلقونهم فى النار : هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون أمثالكم يترددون بينها وبين شراب شديد الحرارة يقطع أمعاءهم ، فبأى نعم ربكما تكذبان أيها المكذبون من الإنس والجن .

واعتبر هذا القول نعمة من نعم الله فى الدنيا للثقلين ؛ لأنه ربما دعاهم إلى الإيمان ليتقوا هذا العذاب .

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾)

المفـــردات :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ) أى : خاف قيام ربه وهيمنته عليه ، فمقام : مصدر ميمى مضاف إلى الفاعل ، فالقيام هنا مثله فى المعنى قوله - تعالى :- « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ »[1] وللكلام بقية فى شرحها .

(جَنَّتَانِ) : بستانان .

(أَفْنَانٍ) : جمع فَنٍّ بمعنى : نوع ، أو جمع فَنَن وهو ما دَقَّ ولان من الأغصان .

(زَوْجَانِ) : صِنفان ، وسيأْتى بيان ذلك فى موضعه من الشرح .

(مُتَّكِئِينَ) : الاتكاءُ الاعتماد والتحمل ، والتُّكَأَةُ العصا ومايتكأُ عليه ، ومنه بمعنى الجلوس قوله ﷺ : « أنا لا آكل متكئًا »[2] أى : جالسًا على هيئة المتمكن المتربع المستدعية لكثرة الأَكل ، بل كان قعوده مستوفزًا[3] .

(إِسْتَبْرَقٍ) : ديباج ثخين ، والديباج الحرير المنقوش ، وهو فارسىٌّ مُعَرَّب .

(وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ) أى : ما يجنى ويؤخذ من ثمار أشجارها .

التفسير

٤٦ - ٤٩ - (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

ذكر الله فيما مضى من الآيات أحوال أهل النار ، وجاءت هذه الآيات ومابعدها لتبين الآلاء والنعم التى أعدها الله لعباده المؤمنين الأَبرار ، وهم الذين خافوا مقام ربهم يوم الحساب.

وهذه الآيات نزلت فى أبى بكر - رضى الله عنه - روى عن ابن الزبير وابن شوذب وابن أبى حاتم عن عطاء ، أنه - رضى الله عنه - ذكر ذات يوم وفكر فى القيامة والموازين والجنة والنار ، وصفوف الملائكة وطى السموات ونسف الجبال وتكوير الشمس وانتشار

---

(١) سورة الرعـــد من الآية : ٣٣

(٢) رواه البخارى .

(٣) ومن معانى الاتكاء: الاضطجاع على الجنب . انظر : لفظ « وكأ » ولفظ « ضجع » فى القاموس

الكواكب ، فقال : وددت أنى كنت خَضِرًا من هذه الخضر ، تأتى علىَّ بهيمة فتأكلنى وأنى لم أخلق ، فنزلت : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) وهى وإن نزلت بسبب خوف أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - فالعبرة بعموم اللفظ لكل خائف ، لا بخصوص السبب .

ومقام مصدر ميمى معناه : قيام ، وهو مضاف إلى الفاعل ، أى : ولمن خاف قيام ربه وهيمنته عليه يوم القيامة ، وذلك هو المقصود من قوله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ »[1] وهذا المعنى مروى عن مجاهد وقتادة ، أو هو اسم مكان ، والمراد به : مكان وقوف الخلق وقيامهم عند ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، وإضافته للرب لأنه لا سلطان فيه لغيره - جلَّ وعلَا - وهذا المعنى موافق للمراد من قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »[2] أى : يوم وقوف الناس وقيامهم فى أماكنهم منتظرين قضاء رب العالمين .

والجنتان لكل واحد من المتقين ، إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه ، والأخرى منزل أزواجه وخدمه ، كما يفعله الرؤساء والمترفون فى الدنيا ، وإلى هذا ذهب الجبائى ، وقيل : بستانان ، أحدهما : داخل قصره والآخر : خارجه .

والخوف من الله - تعالى - هو خوف من حسابه وعقابه على فعل المعاصى وترك الطاعات ، فيحمله هذا الخوف على تقوى الله - تعالى - وقال مجاهد : هو الرجل يريد الذنب فيذكر الله - تعالى - فيدع الذنب ، وما قاله مجاهد مثال لباعث من بواعث الخوف من الله تعالى ، فالخوف من الله - تعالى - أوسع من ذلك ، فمن أطاع الله وترك المعاصى يعد خائفًا منه - جلَّ وعلَا - سواءٌ حملته النفس على معصيته فكف عنها خوفًا منه تعالى ، أو لم تحمله ، ولكنه دأب على طاعته وترك معصيته ، خوفًا منه ، حتى أصبح ذلك خلقا له .

وقد وصفت الجنتان بأنهما ذواتا أفنان ، وما بينهما جملة اعتراضية للتنبيه على أن التكذيب بالموصوف أو بالصفة موجب للإنكار والتوبيخ ، وأفنان إمَّا جمع فَنٍّ بمعنى النوع ،

---

(١) سورة الرعد من الآية : ٣٣

(٢) سورة المطففين الآية : ٦

أى : صاحبتا أنواع من الأشجار والثمار ، وروى ذلك عن ابن عباس وابن جبير والضحاك ، وعليه قول الشاعر :

ومن كل أفنان اللذاذة والصبا لهوتُ به والعيش أخضر ناضر

وإمَّا جمع فَنَن ، وهو مالاَنَ ودق من الأغصان ، كما قاله مجاهد وابن الجوزى وعلى تفسيرها بمعنى الأغصان يكون تخصيصها بالذكر مع أنها ذواتا جذوع وأوراق وثمار أيضًا لأنها هى التى تورق وتثمر ، فمنها تمتد الظلال ، ومنها تجنى الثمار ، فكأنه قيل : ذواتا ثمار وظلال ، فالأغصان كناية عن ذلك .

٥٠ ـ ٥٥ ـ (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المعنى : فى الجنة لكل خائف مقام ربه عينان تجريان بالماء الزلال ، إحداهما بالتسنيم والأخرى بالسلسبيل ، وروى هذا عن الحسن ، وقال عطية العوفى : عينان : إحداهما من ماءٍ غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين ، فبأى نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان ، فى الجنتين من كل فاكهة صنفان : صنف معروف لهم فى الدنيا ، وصنف آخر غريب لم يعرفوه ، أو صنف يابس ، وآخر رطب ، فبأى نعم ربكما تكذبان ، معتمدين على فرش من ديباج ثخين ، سواءٌ كان الاعتماد جلوسًا عليها أو نومًا أو اضطجاعًا وإذا كانت الفرش بطائنها من إستبرق فكيف بالظواهر ، وقيل لابن عباس : بطائنها من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : ذلك مما قال ـ تعالى ـ : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ »[1] .

وثمر الجنتين قريب ، يناله القائم والقاعد والمضطجع ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولى الله ـ تعالى ـ إن شاء قائمًا وإن شاء قاعدًا وإن شاء مضطجعًا : فبأى نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان .

(١) سورة السجدة من الآية : ٧

(فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾)

المفـــردات :

(قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) : نساءٌ قصرن أبصارهن على أزواجهن ، وسيأتى فى الشرح مزيد بيان .

(لَمْ يَطْمِثْهُنَّ) : لم تفتض بكارتهن .

التفسير

٥٦ – ٦١ – (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المعنى : فى هذه الجنات المعدة لمن خافوا مقام ربهم فاتقوه وكانوا من الأبرار – فيهن – نساءٌ قاصرات أبصارهن على أزواجهن فلا ينظرن سواهم ، أخرج ابن مردويه بسنده عن النبى ﷺ أنه قال فى ذلك : « لا ينظرون إلَّا إلى أزواجهن » أو قاصرات أبصار أزواجهن عليهن ، فلا ينظرون سواهن ، لم يفتض بكارتهن ولم يجامعهن إنس ولا جان قبل هؤلاء المتقين ، فبأى نعم ربكما تكذبان ، كأنهن فى صفائهن الياقوت وفى حمرتهن المرجان[1] ، فبأى نعم ربكما تكذبان ، هل جزاءُ الإحسان فى الطاعة إلَّا الإحسان فى الثواب . فهؤلاء

(١) ذكر هذا المعنى قتادة – كما فى البحر .

الخائفون أحسنوا فتركوا المعاصى وأقبلوا على الطاعات ، فأحسن الله إليهم هذا الإحسان الذى تقدم بيانه .

(وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾)

المفـــردات :

(وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) : ومن تحت هاتين الجنتين السابقتين فى المنزلة والقدر جنتان أخريان .

(مُدْهَامَّتَانِ) : شديدتا الخضرة .

(نَضَّاخَتَانِ) : فوارتان بالماء ، صيغة مبالغة من النضخ ، وهو فوران المـاء .

التفسير

٦٢ ـ ٦٩ ـ (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

تحكى هذه الآيات نعيمًا آخر ، لصنف آخر ممن خاف مقام ربه ، فهاتان الجنتان لأصحاب اليمين ، والجنتان السابقتان للسابقين ـ كما قاله ابن زيد والأكثرون ـ وقال

الحسن : الأوليان السابقين والأخريان التابعين ، وهو بذلك يجعل أصحاب اليمين من جملة السابقين ، وهذا القول روى موقوفًا ، وصححه الحاكم عن أبى موسى .

ومعنى هذه الآيات : وأقل من الجنتين السابقتين جنتان لصنف آخر ممن خاف مقام ربه ، وقد وصف الله هاتين الجنتين بأوصاف فصل بينهما بقوله تعالى - : (فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إيذانًا بالإنكار والتوبيخ على تكذيب كلّ من الموصوف وصفته .

وأول هذه الأوصاف أن الجنتين « مُدْهَامَّتَانِ » أى :خضراوان - كما روى عن ابن عباس وغيره ، وأصل هذا التفسير عن النبى ﷺ فقد أخرج الطبرانى وابن مردويه عن أبى أيوب - رضى الله عنه - قال : « سألت النبى ﷺ عن قوله - تعالى - « مُدْهَامَّتَانِ » فقال ﷺ : « خضراوان » والمراد أنهما شديدتا الخضرة من كثرة الرى ، حتى أصبح لونهما يميل إلى الدهمة وهى السواد ، ووَصْف هاتين الجنتين بذلك دون السابقتين ، للإيذان بأن الغالب فيهما النبات والرياحين المنبسطة على الأرض ، أما وصف السابقتين بأنهما « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » ، فللإيذان بأن الغالب فيهما الأشجار ، فإنها هى التى توصف بأنهما « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » والنبات يوصف بالخضرة الشديدة .

وثانى هذه الأوصاف « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » أى : فوارتان بالماء ، قال البراءُ بن عازب فيما أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبى حاتم : العينان اللتان تجريان خير من النضاختين.

وثالث هذه الأوصاف (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) وقد عطف نخل ورمان على فاكهة مع أنهما منها ، للإيذان بفضلهما ، وقيل : إنهما لم يخلصا فى الدنيا للتفكه ، فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاءٌ ، والرمان فاكهة ودواءٌ ، فكأنهما جنس آخر فعطفا على الفاكهة ، ولهذا قال أبو حنيفة : من حلف أن لا يأكل فاكهة فأكل رُمّاناً أو رُطبا لم يحنث ، وخالفه صاحباه .

(فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾)

المفـــردات :

(خَيْرَاتٌ) : جمع خَيْرة ، وصف بنى على فعلة من الخير ، كما قالوا شَرَّة من الشر ، قاله أبو حيان ، وقال الزمخشرى : أصله خيِّرات بالتشديد فخفف : كما قال ﷺ - هيْنُون لَيْنُون - بإسكان بدل تشديدها .

(حُورٌ) : جمع حوراء ، أى : بيض كما روى عن ابن عباس ، وقال ابن الأثير : الحوراءُ هى شديدة بياض العين ، شديدة سوادها ، وزاد فى القاموس أن تستدير حدقتها وترقُّ جفونها ويبيض ما حولها .

(مَقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَام) : مُخَدَّرات ملازمات لبيوتهن ، لايطفن فى الطرق .

(لَمْ يَطْمِثْهُنَّ) : لَمْ يطأْهن ، فهن أبكار .

(رَفْرَفٍ) : قال الجبائى : هى الفُرُش المرتفعة ، وسنزيده بياناً فى الشرح .

(حِسَانٍ) حملا على المعنى .

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ) : تنزه وتقدس .

التفسير

٧٠ – ٧٨ – (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَىِّ آلَاءِ ربِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) :

فى هذه الآيات الكريمة بقية أوصاف الجنتين الأخيرتين ، وبدأت بالوصف الرابع لهما وهو (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) والتعبير بالجمع فى قوله : (فِيهِنَّ) مع أنهما جنتان باعتبار جميع الجنان التى يمنحها الله لهؤلاء الأبرار .

والمعنى : فى هذه الجنات نساءٌ مختارات حسان الخَلْق والخُلُق ، وقال قتادة : خيرات الأخلاق حسان الوجوه .

وهؤلاء الخيرات الحسان حور مقصورات فى الخيام غير نساء الدنيا ، وهن مخدَّرات أى : ملازمات لبيوتهن لا يطفن بالطرق ، عاكفات على أزواجهن ، وقد وصفهن بالحُور ، وهو شدة بياض بياض العيون ، وشدة سواد سوادها ، مع استدارة الحدقة ورقة الجفون وبياض ما حولها .

وقد وصفت هذه الحور بأنهن أبكار لم يَطَأْهن إنْس ولا جان قبل أزواجهن ممن خافوا مقام ربهم .

ووصف أصحاب هذه الجنان بأنهم يعتمدون على رفرف خضر وعبقرى حسان جلوساً أو اضطجاعاً أو نوماً ، والرفرف جمع رفرفة ، ولهذا وصف بخضر جمع أخضر ، وهو ما يطرح على ظهرالفرش للنوم ، وهذا التفسير لابن عباس وغيره ، وقال الجبائى : هى الفرش المرتفعة ، وقال الحسن : هى البُسُطُ .

كما يتكئون على عبقرى حسان ، والعبقرى لفظ يطلق على الشىء العجيب النادر . والمراد به : الجنس ولذا وصف بالجمع .

وفسره أبو عبيدة بأنه ماكُلُّهُ وشْىٌ - أى : نقش - من البسط ، وفسره مجاهد بأنه الديباج الغليظ ، وقيل غير ذلك .

ثم ختمت السورة بقوله تعالى : (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) :

أى : تعالى الله صاحب العظمة والتكريم ومنزه عن أن يكون له شريك فى هذا الإنعام وفى هذا الملكوت العظيم .

((ســـورة الواقعة))

وهى مكيَّة كما أخرجه البيهقى وغيره عن ابن عبّاس ، وآياتها ستٌّ وتسعون نزلت بعد سورة طه .

مناسبتها لما قبلها :

سورة الواقعة متَّفقة مع ما قبلها [سورة الرحمن] فى أنَّ كلّ منهما وصف القيامة والجنَّة والنَّار ، قال بعض الأَجِلَّة : انظر إلى اتصال قوله - تعالى - : (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) بقوله - تعالى - فى سورة الرحمن : « فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ [1] » وأنَّه اقتصر فى سورة الرحمن على ذكر انشقاق السماء ، وفى سورة الواقعة على ذكر رَجِّ الأَرض ، فكأَنَّ السورتين لتلازمهما وتوافقهما سورة واحدة ، ذُكِر فى كلٍّ شىْء .

وقد عُكِس الترتيب فذُكِر فى أوَّل سورة الواقعة مافى آخر سورة الرَّحمن ، وفى آخر هذه مافى أول تلك ، فافتتح فى سورة الرحمن بذكر القرآن ثم ذكر الشمس والقمر ثم ذكر النبات ثم خلق الإنسان والجان ، ثم صفة يوم القيامة ، ثم صفة النَّار ، ثم صفة الجنَّة .

وبُدِئَ فى سورة الواقعة بذكر القيامة ، ثم صفة الجنَّة ، ثم صفة النَّار ، ثم خَلْق الإنسان ، ثم النبات ، ثم الماء ، ثم النَّار .

المعنى العــام للســورة :

تقْرعُ سورة الواقعة سَمْعَك ، وتبعث الخوف والرَّهبة فى نفسك حين تحَدِّثك عن وقوع يوم القيامة ، وما يصاحب ذلك الوقوع مِنْ أُمُور جِسام ، وأَحداث عِظام ، حيث ترج الأَرض وتزلزل زلزالها ، وتتفتَّت الجبال تَفْتِيتا وتصير غبارًا منتشرًا متطايرًا ، وتذكر أَحوال الناس يومئذ وأَنواعهم فهم أَصناف ثلاثة :

١ - أَصحاب اليمين .

---

(١) سورة الرحمن الآية : ٣٧

٢ ـ أصحاب الشمال .

٣ ـ والسَّابقون .

وتبيِّن بتفصيل ما أعدَّ الله لكلٍّ من نعيم مُقيم جزاء عملهم الصالح ، أو عذاب أليم يناسب كفرهم وعصيانهم وخروجهم عن أوامر ربِّهم وتكذيبهم بيوم الدِّين وقولهم : (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) ؟ (أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ[1]) ؟

وتتحدث السورة بعد ذلك عن بعض آلاء الله ونعمه ، وآثار قدرته فيما خلق وأبدع فى الزرع والماء والنار ، وأن ذلك يستوجب تسبيح الله وتقديسه على نعمه الغامرة ، وشكره على آياته الظاهرة الباهرة ، وتوضِّح أنَّ مَنْ خلق هذا وأَوْجَده إله قادر على البعث ، وإعادة الناس إلى الحياة مرَّة ثانية للحساب والجزاء ؛ لأنَّ الإعادة أسهل من البداءة عادة .

وتذكر السُّورة أنَّ الله ـ سبحانه ـ قضى بين النَّاس بالموت وجعل لموتهم وقتاً مُعيَّنا وهو ـ سبحانه ـ ليس بعاجز على أن يبدِّل صورهم بغيرها وينشئهم خلقاً آخر فى صور أخرى لا يعرفونها ، وفى السُّورة قَسَمٌ على مكانة القرآن وعلو شأْنه وتقريع للكافرين على قبح صنعهم وعجيب شأْنهم ، حيث وضعوا التَّكذيب موضع الشُّكر ؛ وقابلوا النعمة بالجحود والكفر ، وفى آخر السورة إجمالى ما فصلته أولاً عن أَحوال الأَصناف الثلاثة ، وما ينتظر كلَّ صنف من ثواب أوعقاب .

وتختتم السورة ببيان أنَّ كلَّ الَّذِى ذكر فيها وجاءت به هو حق اليقين ولذا فسبِّح باسم ربِّك العظيم .

---

(١) سورة الواقعة الآيتان : ٤٧ و ٤٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾)

المفردات :

(وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) : حدثت وقامت القيامة .

(لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ) : لا تكون نفس مُكذِّبة بوقوعها يوم القيامة

(خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ) : خافضة لأقوام رافعة لآخرين والخفض والرفع يُستعملان عند العرب فى المكان والمكانة .

(رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا) : زُلزلت وحُرِّكت تحريكاً عظيماً .

(وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا) : فُتِّتت تفتيتاً شديدًا أو سيقت وسُيِّرت من بسّ الغنم إذا ساقها

(فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا) : فكانت غبارًا منتشرًا متفرقاً .

التفسير

١ ـ (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) :

أى : إذا قامت وحدثت القيامة ، فالواقعة من أسماء يوم القيامة كما صرّح بذلك ابن عبّاس وسُمِّيت بذلك للإيذان بتحقيق وقوعها لامحالة كما قال تعالى :

« فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ »[1] قال الزمخشرى : وقعت الواقعة هو كقولك : كانت الكائنة وحدثت الحادثة فكأنَّهُ قيل : إذا وقعت التى لابدّ من وقوعها ، ووقوع الأمر نزوله ، يقال : وقع ما كنت أتوقعه أى : نزل ماكنت أترقب نزوله وقال الضحّاك : الواقعة الصّيحة وهى النفخة الأخيرة فى الصور وجواب إذا تقديره حدث كيت وكيت ، وفى إبهامه تهويل وتفخيم لأمر الواقعة .

٢ ـ (لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ) :

اعتراض يُؤَكِّد تحقيق الوقوع أو حال من (الْوَاقِعَةُ) كما قال ابن عطيَّة ، أى : لايكون حين وقوعها نفس كاذبة تنكر وقوعها وتنفيه وتجحده .

وقال ابن كثير : أى : ليس لوقوعها ـ إذا أراد الله كونها ـ صارفٌ يصرفها ولادافعٌ يدفعها ، ومعنى كاذبة كما قال محمد بن كعب لابدَّ أن تكون .

ويجوز أن تكون (كَاذِبَةٌ) مصدرًا بمعنى التَّكذيب وهو التَّثبيط أى : ليس لوقعتها ارتداد ولا رجعة كالحملة الصَّادقة من ذى سطوة قاهرة ، وروى نحو ذلك : عن الحسن وقتادة وابن جرير .

٣ ـ (خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ) :

أى : هى خافضة رافعة ترفع أقواماً وهم السّعداء وتضع آخرين وهم الأشقياء ، تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين فى الجحيم وإن كانوا فى الدنيا أعزَّاء ، وترفع آخرين إلى أعلى

---

(١) سورة الحاقة الآية : ١٥

عِلِّيين إلى النَّعيم المقيم وإن كانوا فى الدنيا وضعاء هكذا قال الحسن وقتادة وغيرهما .
وقيل : تزلزل الأشياء وتُزيلها عن مقارّها فتخفض بعضاً وترفع بعضاً حيث تسقط السماء كسفا ، وتنتثر الكواكب وتنكدر ، وتسير الجبال فتمرّ فى الجوّ مر السحاب ، فالخفض والرفع إما حسّى أو معنوىّ .

٤ ـ (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا) :

أى : إذا زُلزلت الأرض واهتزّت وحُرِّكت تحريكاً شديدًا بحيث ينهدم ما فوقها من بناءٍ وجبال ، وإذا بدل مما قبلها أى : تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبسّ الجبال .

٥ ـ (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا) :

أى : وفُتتت الجبال تفتيتاً دقيقاً أو وسيقت وسُيِّرت من بسّ الغنَم إذا ساقها فهو كقوله تعالى : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ »[١]

٦ ـ (فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا) :

أى : فصارت الجبال بسبب ذلك البس غبارًا منتشرًا ، والمراد : مطلق الغبار عن الأكثرين ، وقال ابن عباس : الهباء : هو ما يثور مع شعاع الشمس إذا دخلت من كُوَّة ، وفى رواية أُخرى عنه : أنّه الَّذِى يطير من النَّار إذا اضطرمت .

قال ابن كثير : وهذه الآية كأخواتها دالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة ، وذهابها وتسييرها ونسفها أى : قلعها .

---

(١) سورة النبأ الآية : ٢٠

(وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(أَزْوَاجاً) : أصنافاً وأنواعاً وعن مجاهد فِرَقاً .

(فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) : فأصحاب اليُمْن والبركة ، أو ناحية اليمين .

(وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) : وأصحاب الشُّؤْم ، أو جهة الشِّمال .

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) : عن ابن كيسان : هم المسارعون إلى كلِّ ما دعا الله إليه ، ورجّحه بعضهم ؛ لأنه عام يشمل كلَّ الأنواع .

التفسير

٧ـ (وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً) :

خطاب للأُمة الحاضرة والأُمم السالفة كما ذهب إليه الكثير ، والمعنى : وصرتم جميعاً فى يوم القيامة أصنافاً وأنواعاً وفرقاً ثلاثة ، قال الآلوسى : كل صنف يكون مع صنف آخر فى الوجود أو الذكر فهو زوج :

قال ابن كثير : ينقسم النَّاس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف :

١ ـ قوم عن يمين العرش ويُؤْتَوْن كتبهم بأَيمانهم ، ويؤخذ بهم ذات اليمين ـ قال السّدى : هم جمهور أهل الجنة .

٢ ـ وآخرين عن يسار العرش ويُؤْتَوْنَ كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشِّمال وهم عامّة أهل النّار .

٣ ـ وطائفة يُساقون بين يديه ـ عزّ وجلّ ـ وهم أخصّ وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين ، فيهم الرُّسل والأنبياءُ والصديقون والشهداء .

وهكذا قسّمهم إلى هذه الأنواع الثّلاثة فى آخر السورة وقت احتضارهم ، وذلك إشارة إلى قوله ـ تعالى ـ فى آخر السورة (فَأَمَّآ إن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ)[1] ... إلخ .

٨ ، ٩ ـ (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) :

شروع فى تفصيل للأزواج الثلاثة مع الإشارة الإجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها ، والدائرعلى ألسنة المفسرين أنَّ أصحاب الميمنة مبتدأ خبره جملة ما أصحاب الميمنة والرابط الظاهر القائم مقام الضمير فى قوله ـ تعالى ـ : (مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) وكذا يقال فى قوله ـ تعالى ـ : (وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) .

والأصل فى الموضعين ماهم ؟ أىْ . أى شىء هم فى حالهم وصفتهم ، والمراد تعجيب السامع لشأن الفريقين فى الفخامة والفظاعة ، كأنَّهُ قيل : فأصحاب الميمنة هم فى غاية من حسن الحال وما أعظم مكانتهم ، وأصحاب المشأمة هم فى نهاية سوء الحال وما أسوأ مكانتهم ، واختلفوا فى الفريقين :

١ ـ فقيل أصحاب الميمنة : أصحاب المنزلة السّنية . وأصحاب المشأمة أصحاب المنزلة الدنيّة .

٢ ـ وقيل : الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ، والذين يؤتونها بشمالهم .

(١) سورة الواقعة الآيتان : ٨٨ و ٨٩

٣ – وقيل : الذين يُؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنَّة ، والَّذين يؤخذ بهم ذات الشِّمال إلى النَّار .

٤ – وقيل : أَصحاب اليُمن ، وأَصحاب الشُّؤْم ، فإن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم ، والأَشقياء مشائيم على أَنفسهم بمعاصيهم روى هذا عن الحسن والربيع (ا هـ . بتصرف آلوسى – وكشاف) .

١٠ – (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) :

هذا هو الصنف الثَّالث من الأَزواج الثلاثة ، ولعل تأْخير ذكرهم مع أنهم أسبق الأَصناف وأَقدمهم فى الفضل ليردف ذكرهم ببيان محاسن أَحوالهم ، واختلف فى تعيينهم فقيل .

١ – هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم ، روى ذلك عن عكرمة ومقاتل .

٢ – وقيل : هم من ذكروا فى الحديث الذى أورده صاحب « البحر » : « سئل الرسول ﷺ عن السابقين فقال : هم الَّذين إذا أُعطوا الحق قبلوه ، وإذا سُئلوه بذلوه ، وحكموا للنَّاس كحكمهم لأَنفسهم » .

٣ – وقيل : هم السّابقون إلى الهجرة والصَّلوات والجهاد ، أَو هم أَهل القرآن أَو هم الأَنبياءُ .

٤ – وقيل – كما نقل عن ابن كيسان – هم المسارعون إلى كل مادعا الله إليه ، ورجحه بعضهم بالعموم .

وجعل ما ذكر فى أَكثر الأَقوال من باب التمثيل .

والشائع أن (السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) مبتدأ وخبر والمعنى : والسّابقون هم الذين اشتهرت أحوالهم ، وعرفت مكانتهم ومنزلتهم ، كقولهم : أنا أبو النجم ، وشعرى شعرى ، وفيه من تفخيم شأنهم والإيذان بشيوع فضلهم مالا يخفى (اهـ . آلوسى بتصرف) ولم يقل : والسابقون ما السابقون على غرار الأولين فى قوله – تعالى – : (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) . إلخ لأنه جُعِل أمرًا مفروغاً منه مُسلَّما به مستقلاً بالمدح والتعجّب .

١١ – (أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) :

مبتدأ وخبر والجملة استئناف وبيان ، أى : أولئك المقرّبون عند الله ، الموصوفون بذلك النّعت الجليل الذى استحقوه حُظوة ومكانة عنده ، أو الذين قربت إلى العرش العظيم درجاتهم ، والإشارة بأُولئك إلى السابقين وما فيه من معنى البعد – مع قرب المشار إليه – للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل .

١٢ – (فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ) :

أى : كائنين فى جنات النعيم وفائدة ذكر (فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ) بعد ذكر كونهم مقرّبين للإشارة بالأول إلى اللذة الروحية ، وبالثانى إلى اللذة الحسية .

(ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(ثُلَّةٌ) : المشهور أنها الجماعة كثرت أو قلت ، وقال الزَّمخشرىُّ : الاستعمال غلب على الكثير فيها .

(الأَوَّلِينَ) : الأُمم الماضية قبل الرّسول ، أَو الأَولين من صدر أُمة محمد .

(الآخِرِينَ) : أُمَّة محمد أَو المتأَخِّرين منهم .

(مَوْضُونَةٌ) : منسوجة بالذّهب بإِحكام .

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ) : يدور عليهم للخدمة .

(بِأَكْوَابٍ) أَقداح لا عُرا لها ولا خراطيم .

(وَأَبَارِيقَ) : أَوانٍ لها عُرًا وخراطيم .

(كَأْسٍ) : إِناء شرب الخمر .

(مَعِينٍ) : خمر جارية من العيون .

(لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا) أى : لا يصيبهم صُداع بشربها .

(وَلَا يُنزِفُونَ) : لا تذهب عقولهم بسببها .

(وَحُورٌ عِينٌ) : ونساء بيض واسعات الأَعين حسانها .

(اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) : اللؤلؤ المستور المصون فى صدفه مما يُغَيِّره .

(لَغْوًا) : كلاماً لا خير فيه .

(تَأْثِيماً) : حديثاً قبيحاً يأْثم قائله .

التفسير

١٣ ، ١٤ ـ (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) :

وقد اختلفوا فى المراد بـ (الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ) فى الآية السَّابقة فقيل :

١ ـ المراد بالأَوّلين الأُمم الماضية ، والآخرين هذه الأُمّة ، وهذه رواية عن مجاهد والحسن واختار ابن جرير هذا القول .

قال ابن كثير : وهذا الَّذِى اختاره ابن جرير هو قول ضعيف ؛ لأَنَّ الأُمَّة المحمدية خير الأُمم بنصّ القرآن ، فيبعد أن يكون المقرّبون فى غيرها أكثر منها ، اللَّهُم إِلاَّ أن يقابل مجموع الأُمم بهذه الأُمة ، [والظاهر أَنَّ المقرّبين من أُمة محمد أكثر من سائر الأُمم] والله أعلم .

فالقول الثانى فى هذا المقام هو الرّاجح وهو أَن يكون المراد بقوله ـ تعالى ـ : (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ) أى : من صدر الأمة [أُمّة محمّد ﷺ] (وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) أى : من هذه الأُمّة ، وقال ابن أَبى حاتم : حدّثنا أَبى ، حدثنا أَبو الوليد ، حدثنا السّرى بن يحيى قال : قرأ الحسن : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ

الْأَوَّلِينَ) قال : ثلة ممن مضى من هذه الأُمة ، وروى عن محمد بن سيرين أنه قال فى قوله – تعالى – : (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) .

كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأُمّة فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأُمة ولا شكَّ أَنَّ أَوّل كلّ أُمّة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأُمم ، كل أمة بحسبها ، ولقد ثبت فى الصّحاح قوله ﷺ : (خير القُرون قرنى ثم الَّذِين يلونهم ثُم الَّذِين يلونهم) .

١٥ ، ١٦ – (عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ) :

(عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ)[1] أى : ومستقرّين على سرر منسوجة بالذهب مشبّكة بالجواهر الكريمة من الدُّرّ والياقوت بإحكام ، وقيل موضونة : أى : متصل بعضها ببعض متقاربة كحلَقِ الدِّرع .

(مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ) أى : مضطجعين على السُّرر فى راحة واستقرار وهدوء وطمأْنينة متقابلة وجوههم ليس أحد وراءَ أحد .

والمراد كما قال مجاهد : لا ينظر أحدهم فى قفا صاحبه ، وهو وصف لهم بِحُسْن العشرة وكمال الخلق ، ورعاية الآداب ، وصفاءِ النّفوس وطهارة القلوب .

١٧ ، ١٨ – (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) :

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ) حال آخر ، أو استئناف أى : ويدور حول السابقين المقرّبين للخدمة ولدان مُخلدون أى : باقون أبدًا على هيئة الولدان وشكلهم وطراوتهم لا يتحوّلون عن ذلك ، وإلاّ فكلّ أهل الجنة مُخلَّد لا يموت .

---

(١) (موضونة) من الوضن وهو نسج الدرع ، استعير لمطلق النسج ، أو لنسج محكم مخصوص ومن ذلك وضين الناقة وهو حزامها ؛ لأنه موضون أى : مفتول والمراد هنا على ما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس مرمولة أى : منسوجة بالذهب . (إ هـ . آلوسى) .

وقال الفراء وابن جبير : (مُخَلَّدُونَ) أى : مُقَرَّطون بخلدة وهى ضرب من الأقراط قيل : الولدان : هم أولاد أهل الدنيا الَّذين ماتوا صِغاراً فلم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيِّئات فيعاقبوا عليها ، روى هذا عن على - كرم الله وجهه - وعن الحسن . واشتُهر أنَّه - عليه الصَّلاة والسَّلام - قال : (أولاد الكفَّار خدم أهل الجنَّة) .

(بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) :

(بِأَكْوَابٍ) أى : ويدور عليهم الولدان بآنية لا عُرَا لها ولا خراطيم ، والظَّاهر أنَّهَا الأقداح وبذلك فسَّرها عكرمة وهى جمع كوب .

(وَأَبَارِيقَ) : جمع إبريق وهو إناء له خرطوم وعروة .

(وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) أى : وبكأْس ملئت خمراً من عيون جارية كما قال ابن عباس وقتادة ، أى : لم يُعصر كخمر الدنيا وقيل : (مَعِين) خمر ظاهر للعين مرئيَّة بها ؛ لأنَّها كذلك أهنأُ وألذُّ .

١٩ - (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ) :

(لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا) أى : لا يصيبهم بشربها صُداع يصرفهم عنها ، والمراد : أنه لا يلحق برءُوسهم صداع لأجل خِمار يحصل منها كما فى خمور الدنيا ، أو لا يُفرقون عنها : بمعنى : لا تُقطع عنهم لذَّتهم بسبب من الأسباب .

(وَلَا يُنزِفُونَ) أى : ولا تذهب عقولهم بسكرها من نُزِف الشارب كَعُنِىَ إذا ذهب عقله ، فهى لذَّة بلا ألم ولا سكر بخلاف شراب الدُّنيا والآية الأُولى (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا) لبيان نفى الضَّرر عن الأجسام والثانية (وَلَا يُنزِفُونَ) لبيان نفى الضَّرر عن العقول .

٢٠ ، ٢١ - (وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ) :

(وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ) أى : ويطوف الولدان عليهم بما يتخيَّرون من الفاكهة والثِّمار أى : يأْخذون خيره وأفضله والمراد بما يرضونه ويعجبهم .

(وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ) أى : ولحم طير مما تميل نفوسهم إليه وترغب فيه .

والظَّاهر أنَّ الآية تشير إلى أنَّ الولدان يطوفون بهما عليهم فى الجنة ، مع أنَّه جاء فى الآثار والأَحاديث أَنَّ فاكهة الجنة وثمارها ينالها القائم والقاعد والنَّائم ، وأَنَّ الرجل من أهل الجنَّة يشتهى الطير فيقع فى يديه نضجا ، وإنَّمَا كان طواف الولدان عليهم للإكرام ولمزيد المحبَّة والتَّعظيم والاحترام وهذا كما يناول أحد الجالسين على مائدة جليسا معه بعض ما عليها من الفاكهة ونحوها ، وإن كان ذلك قريباً منه اعتناء بشأْنه وإظهارا لمحبته والاحتفاء به ، وتقديم الفاكهة على اللحم للإشارة إلى أنهم ليسوا بحال تقتضى تقديم اللحم كما فى الجائع ، فإن حاجته إلى اللحم أشدّ من حاجته إلى الفاكهة ، بل هم فى حالة تقتضى تقديم الفاكهة واختيارها كما فى الشَّبعان فإنه إلى الفاكهة أميل منه إلى اللّحم .

قال ابن كثير فى تفسير قوله ـ تعالى ـ : (وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ) هذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيُّر والانتقاء لها .

٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ـ (وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) :

(وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) : أى : ولهم فى الجنَّة نساءٌ بيض واسعات العيون حسانها كأَمثال اللُّؤلؤ المكنون ، أى : المصون فى صدفه ، وقيّد بالمكنون أى : المستور بما يحفظه ؛ لأَنَّه أَصفى وأَبعد عن التغيُّر .

(جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) : أَى يُعْطون هذا الجزاء العظيم وينالون هذا الثواب الجزيل بسبب ما كانوا يعملون من الصالحات فى الدُّنيا .

٢٥ ، ٢٦ ـ (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) :

أَى : لا يسمعون فى الجنة (لَغْوًا) وهو ما لا نفع فيه من الكلام أَو هو القبيح منه ، (وَلَا تَأْثِيمًا) أَى : لا يسمعون حديثًا ينسب إلى الإثم قائله أو سامعه إن رضى به .

(إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) أى : إلَّا أن يقول بعضهم لبعض : سلامًا سلامًا أى : نسلم سلامًا قال تعالى ـ تعالى ـ : (تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)[1] قال ابن عباس : أى يُحَيِّى بعضهم بعضًا بالسَّلام ، وقيل : تحييهم الملائكة أو يحيِّيهم ربهم ـ عَزَّ وَجَلَّ .

والتَّكرير للدَّلالة على ذيوع السَّلام وكثرته ؛ لأَن المراد سلام بعد سلام .

والكلام من باب تأْكيد المدح بما يشبه الذم .

(وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾)

(سِدْرٍ) : السدر : شجر النبق .

(مَخْضُودٍ) : قُطِع شوكه أو مثقل بالثمر .

(وَطَلْحٍ) : الطلح : شجر الموز روى ذلك عن علىّ وغيره .

(مَنضُودٍ) : فى الصحاح : المنضود : المرصوص بعضه فوق بعض .

---

(١) سورة إبراهيم من الآية : ٢٣

(وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ) : وظل دائم ممتد منبسط لايتقلص ولايتفاوت .

(وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ) : وماءٍ مصبوب فى غير أخدود لاينقطع عنهم .

(وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ) : المراد بالفُرُش : مايفرش للجلوس عليه ،و (مَّرْفُوعَةٍ) مرتفعة القدر أو مرفوعة على الأسرَّة ، وقيل : المراد بالفُرُش : النساءُ ، ومرفوعة فى المنزلة أو على الأرائك ، فالرفع حسّى أو معنوىّ .

(إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً) أى : ابتدأنا خلقهن ابتداءً جديدًا من غير ولادة .

(عُرُبًا) : متحببات إلى أزواجهنَّ جمع عَروب كَصبور وهى حسنة التودد لزوجها .

(أَتْرَابًا) : متساويات فى السِّن أو الأخلاق .

(ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ) : جماعة كثيرة من سابقى هذه الأُمَّة .

(وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) : وجماعة كثيرة من مُتَأَخِّريها .

التفسير

٢٧ ـ (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ) :

لَمَّا ذكر الله ـ تعالى ـ مآل السَّابقين وهم المقرَّبون ، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأبرار كما قال ميمون بن مهران :أصحاب اليمين منزلتهم دون السَّابقين المقرَّبين فقال :

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ) أى : أىّ شىءٍ أصحاب اليمين ، وماحالهم ، وكيف مآلهم ؟ والجملة استئنافيَّة مشعرة بالتفخيم والتَّعجيب من حالهم .

والمعنى : وأصحاب اليمين لايعلم أحد ماجزاءُ وثواب أصحاب اليمين، إنَّه شىءٌ عظيمٌ ثم فسَّر ذلك وفصَّله فقال :

٢٨ ـ (فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ) :

أى : وأصحاب اليمين فى سدر مخضود يتنعَّمون ، عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد ـ السدر المخضود : النَّبق الَّذى لا شوك له ، وعنهم ـ أيضًا ـ هو الموقَّر والمثقل بالثَّمر على أنَّه

من خَضَد الغصنَ إذا ثناه وهو رطب فمخضود مَثْنِىّ الأغصان كنى به عن كثرة الثَّمر . ويدل على أن المخضود هو الذى خُضد أى : قطع شوكه ما أخرجه الحاكم وصححه ، والبيهقىّ عن أَبِى أُمامة قال : كان أَصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله – تعالى – ينفعنا بالأَعراب وسائِلِهم .

أَقبل أعرابى يوما فقال : يا رسول الله لقد ذكر الله فى القرآن شجرة مُؤْذية وما كنت أرى أن فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها . قال : وما هى ؟ قال : السِّدر فإن له شوكًا ، فقال رسول الله ﷺ : أليس الله يقول : (فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ) ؟ خَضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة وإنَّ الثَّمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لونًا من الطَّعام ما فيها لون يشبه الآخر .

وقال أبو العالية والضحَّاك : نظر المؤمنون إلى وَجّ (وهو واد بالطائف مخصب وفى اللِّسان وجّ موضع بالبادية) فأَعجبهم سدره فقالوا : يا ليت لنا مثل هذا . قال الآلوسى والظرفية فى قوله – تعالى – : (فِى سِدْرٍ) : مجازية للمبالغة فى تمكنهم من النعم والانتفاع بما ذكر .

٢٩ – (وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ) :

أَى : وشجر موز قد نضَّد حمله من أسفله إلى أعلاه أى : متراكب قد رُصّ بعضه فوق بعض ليست له ساق بارزة ، روى ذلك عن علىّ وأَخرجه جماعة من طرق عن ابن عباس ، وأَبى هريرة وأَبى سعيد الخدرىّ .

٣٠ – (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ) :

أَى : وهم كائنون فى ظلٍّ ممدود أى : دائم ممتد منبسط لا يتقلَّص ، ولا يتفاوت ولا يذهب كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ، وظاهر الآثار أَنَّه ظل الأَشجار . أخرج أَحمد والبخارى ومسلم والتِّرمذى وابن مردويه عن أَبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « فى الجنة شجرة يسير الرَّاكب فى ظِلِّها مائة عام لا يقطعها وذلك الظِّل الممدود » .

٣١ - (وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ) :

أى : وماءٍ مُنْصَبٍّ حيث شاءُوا لا يحتاجون فيه إلى آنية أو رشاء . قال القُرطبىّ : أصل السَّكب الصَّب أى : وماءٌ مصبوب يجرى اللَّيل والنَّهار فى غير أُخدُود لا ينقطع عنهم ، وكانت العرب أصحاب بادية وبلاد حارة ، وكانت الأنهار فى بلادهم عزيزة ، لا يصلون إلى الماءِ إلَّا بالدَّلو والرَّشاء ، فوُعِدُوا فى الجنَّة خلاف ذلك ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة فى الدُّنيا ، وهى الأشجار وظلالها والمياه والأنهار واطِّرادها .

وقيل : كأنَّه لمَّا شبَّه حال السَّابقين بأقصى مايُتصور لأهل المدن من كونهم على سُرُر تطوف عليهم خُدَّامهم بأنواع الملاذ ، شبَّه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يُتصَوَّر لأهل البَوَادى مِنْ نزولهم فى أماكن خصبة فيها مياه وأشجار وظلال إيذانًا بأنَّ التَّفاوت بين الفريقين كالتَّفاوت بين أهل المدن والبَوَادى [اهـ . آلوسى بتصرف] .

٣٢ ، ٣٣ - (وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّامَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ) :

أى : فاكهة كثيرة الأنواع والأصناف ليست بالقليلة العزيزة كما كانت فى بلادهم ، لا مقطوعة فى أى وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف فى الشِّتاء ، (وَلَا مَمْنُوعَةٍ) أى : ولا يُمْنَع من أرادها بشوك ولا بُعد ولا حائط ، بل إذا اشتهاها العبد دنَتْ منه حتى يأخذها قال - تعالى - : « وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا »[1] ، وقيل : ليست مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان .

٣٤ - (وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ) :

أى : وفُرُش مرفوعة نُضِّدت وفُرِشت حتى ارتفعت ، أو مرفوعة على الأسرة ، فالرفع حسِّى كما هو الظاهر ، وقال بعضهم : رفيعة القدر ، على أنَّ رفعها معنوى بمعنى شرفها ، وأيًّا ما كان فالمراد بالفُرش على هذا : ما يُفْرَش للجلوس والنوم عليه .

---

(١) سورة الإنسان الآية : ١٤

وقال أبو عبيدة : المُرَاد بالفُرُش : النِّساء ؛ لأن المرأة يُكنى عنها بالفِراش كما يكنى عنها باللِّباس ورفعهنَّ فى الأقدار والمنزلة ، وقيل : على الأرائك ، وأيّد إرادة النساء بقوله – تعالى – : (إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً)؛لأن الضمير فى الأغلب يرجع على مذكور متقدم وليس إلَّا الفُرُش ، وعلى التفسير الأول أُضمر لهن ؛ لأن ذكر الفُرُش وهى المضاجع دل عليهن .

٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ – (إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ) :

(إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً) :

المراد بأَنشَأْنَاهُنَّ : أعَدْنا إنشاءهنَّ من غير ولادة ؛ لأنَّ المُخبر عنهنَّ بذلك نساء كن فى الدنيا ، فقد أخرج ابن جرير والتِّرمذىّ وآخرون عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ المنشآت اللّاتى كنّ فى الدُّنيا عجائز عُمْشًا رُمْصًا » وأتت عجوز فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يدخلنى الجنة فقال : يا أُم فلان ، إن الجنة لا تدخلها عجوز ، فولت تبكى فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز إن الله – تعالى – يقول : (إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً ..) الآية .

وقال أبو حيان : الظاهر أن الإنشاء هو الاختراع الذِى لم يُسبق بِخَلْق ويكون ذلك مخصوصًا بالحور العين ، فالمعنى : إنا ابتدأناهن ابتداءً جديدًا من غير ولادة ولا خلق أوّل ، ومما تقدم يتبين أن المراد بقوله – تعالى – : (إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً) اللّاتى أُعيد إنشاؤهنّ وهن نساء الدُّنيا أو اللّاتى ابتُدِئ إنشاؤهنّ وهن الحور العين .

(فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا) :

تفسير لما تقدم أى : فصيرناهنّ أبكارًا أو فخلقناهنّ أبكارًا .

(عُرُبًا أَتْرَابًا) :

(عُرُبًا) : متحببات عاشقات لأزواجهنّ ، واشتقاقه من أعْرب إذا بين فالعَرُوب تُعرب وتُبين عن محبتها لزوجها بتكسّر ودلّ وحسن كلام .

(أَتْرَابًا) : مستويات فى سن واحدة ، كأَنَّهُنَّ شُبِّهن فى التَّساوى بالتَّرائب الَّتى هى ضلوع الصدر وهن أَبناء ثلاثين أَو ثلاث وثلاثين ، وكذا أَزواجهنَّ ، يقال فى النساء : أَتراب ، وفى الرِّجال : أَقران ، وكانت العرب تميل إِلى من تجاوزت حدَّ الصِّبا من النِّساء ، وانحطَّت عن الكِبَر ، أَخرج التِّرمذىّ عن معاذ مرفوعًا : « يدخل أَهل الجنَّة الجنَّة جُرْدًا مُرْدًا مُكحَّلين أَبناء ثلاثين أَو ثلاث وثلاثين » والمراد بذلك تمام الشباب وكماله .

وقيل : أَتراب أَى : مستويات فى حسن الخلق وكريم الطباع ، لاتباغض بينهن ولا تحاسد يَأْلفن ويُؤْلَفن .

(لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ) :

متعلق بأَنشأْنا أَو بجعلنا أَى : إِنَّا أَنشأْناهنَّ إِنشاءً لأَصحاب اليمين ، أَو فجعلناهن أَبكارًا عُرُبًا أَترابًا لأَصحاب اليمين .

والمعنى : هنَّ مهيَّئات ومُعدَّات لنعيم وتمتُّع أَصحاب اليمين ، وقيل : الحُوُرُ العينُ للسَّابقين والأَترابُ العُرُب لأَصحاب اليمين (ذكره القرطبى) .

٣٩ ، ٤٠ ــ (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) :

عاد ورجع الكلام إِلى قوله ــ تعالى ــ : (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ) .

أَى : هم جماعة كثيرة من الأَوَّلين وجماعة كثيرة من الآخرين والمراد بهما : المُتَقَدِّمون والمتأَخِّرُون إِمَّا من الأُمم السابقة وهذه الأُمة ، أَو من هذه الأُمة فقط على ما سمعت فيما تقدَّم .

ولم يقل ــ سبحانه ــ فى حق أَصحاب اليمين ــ جزاءً بما كانوا يعملون كما قاله ــ سبحانه ــ فى حق السَّابقين إِشارة إِلى أَنَّ ما أُعطوه من جزاء كان بمحض فضل الله .

ثمَّ الظَّاهر أَنَّ ما ذكر من حال أَصحاب اليمين هو حالهم الَّذى ينتهون إِليه ، فلا ينافى أَن يكون منهم من يُعَذَّب لمعاصٍ فعلها ومات غير تائب عنها ، ثم يدخل الجنَّة ولا يمكن أَن يُقال : إِن المؤمن العاصى من أَصحاب الشمال ؛ لأَنَّ صريح أَوصافهم الآتية يقتضى أَنَّهم كانوا كافرين . (اهـ. آلوسى) .

(وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(سَمُومٍ) قال الراغب : الرِّيح الحارَّة الَّتى تؤثِّر تـأْثير السّم ، والمراد هنا : النَّار ولفحها .

(وَحَمِيمٍ) : وماءٍ شديد الحرارة .

(يَحْمُومٍ) : دخان حار شديد السواد .

(لَّا بَارِدٍ) : ليس باردًا حتى يخفف حرارة الجوّ .

(وَلَا كَرِيمٍ) : وليس كريماً يعود عليهم بالنفع ، بل هو حارٌّ ضارّ .

(مُتْرَفِينَ) : مُنَعَّمين متّبعين هوى أنفسهم .

(الْحِنثِ الْعَظِيمِ[1]) : الذنب الكبير كالشرك ونحوه .

(مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) : هو يوم القيامة .

(زَقُّومٍ) : شجر فى النّار كريه المنظر والطّعم والرائحة .

(الْحَمِيمِ) : الماء الّذى اشتدّ غليانه وقال القُرطبىّ : هو صَديد أهل النّار .

(الْهِيمِ) : الإبل العِطَاش التى لا تُرْوَى لداء يُصيبها ، وقال ابن كيسان وابن عباس : الأرض ذات الرّمال الّتى لا تُرْوَى من الماء لِتَخَلْخُلِهَا .

(نُزُلُهُمْ) : ما يقدم للنّازل إذا حضر .

(يَوْمَ الدِّينِ) : يوم الجزاء وهو يوم القيامة .

التفسير

٤١ ـ (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ) :

لَمَّا ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ أصحاب اليمين وما أعدّ لهم من النّعيم المقيم كرامة لهم عطف عليهم بذكر أصحاب الشّمال فقال : (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ) أى : وأصحاب الشّمال لا يُدْرى ما هم فيه من العذاب والأهوال وسمّاهم أصحاب الشّمال؛ لأنهم يأخذون كتبهم بشمالهم أو لأنهم يكونون فى جهة الشمال .

٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ـ (فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ) :

٤٢ ـ (فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ) :

فى هذه الآية وما بعدها بيّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما ينال أصحاب الشّمال من عذاب وما يُصيبهم من نكال وعقاب فذكر أنّهم (فِى سَمُومٍ) أى : ريح حارة تؤثّر تأثير السّم وتنفذ فى المسام وتحيط بهم من كل جانب ، (وَحَمِيمٍ) أى : ماءٌ حار قد انتهى حرّه وبلغ

---

[1] ومنه بلغ الغلام الحنث ـ أى الحلم ووقت المؤاخذة بالذنب ـ وحنث فى يمينه خلاف بَرّ فيها وتحنث إذا تأثم .

الغاية ، إذا أحرقت النَّار أجسامهم فَزِعوا إلى الحميم ، كالَّذِى يفزع من النَّار إلى المـاء ليطفئ به الحر فيجده حميمًا حارًّا فى نهاية الحرارة والغليان ، وقد مضى فى سورة محمد قوله — تعالى — : « وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ »[1] .

٤٣ — (وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ) :

أى : يفزعون من السُّموم إلى الظِّل كما يفزع أهل الدُّنيا فيجدونه ظِلاًّ من (يَحْمُومٍ)[2] أى : من دخان شديد السَّواد والحرارة .

وتسمية هذا ظلاًّ على التشبيه التهكمى ، وعن ابن عباس اليحموم — سرادق النَّار المحيط بأهلها يرتفع من كل ناحية حتى يظلَّهم ، وقال ابن زيد : جبل أسود من النار يفزع أهل النار إلى ذراه فيجدونه أشد شىء .

٤٤ — (لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ) :

صفتان للظِّل : أى : ظل لا بارد ليخفِّف حرارة الجو كسائر الظِّلال ولا كريم أى : ولا نافع لمن يأوى إليه ، ونفى ذلك ليزيل توهم ما فى الظِّل من الاسترواح إليه .

والمعنى :أنَّه ظلٌّ حارٌّ ضار ومن ذلك النَّفى جاء التهكم والتعريض بأَنَّ الَّذى يستأهل الظِّل الَّذى فيه بردٌ وإكرام غير هؤلاء فيكون أشجى لحلوقهم وأشد لتحسرهم . (آلوسى — وكشاف) .

٤٥ — (إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ) :

تعليل لابتلائهم بما ذكر من أصناف العذاب وألوان العقاب . أى : وإنَّما استحقوا هذه العقوبة ؛ لأنَّهم كانوا فى الدُّنيا مُتْرَفِين ، والمترف هنا بقرينة المقام هو المتروك يصنع ما يشاء لا يُمْنع .

---

(١) سورة محمد الآية : ١٥

(٢) اليحموم فى اللغة الشديد السواد وهو يفعول من الحم وهو الشحم المسود باحتراق النار . وقيل : مأخوذ من الحمم وهو الفحم (قرطبى) .

والمعنى : أنَّهم عُذِّبوا ؛ لأَنهم كانوا فى الدنيا قبل ذلك أى : قبل ما ذُكِر من العذاب مُتَّبعين هوى أنفسهم وليس لهم رادع منها يردعهم عن مخالفة أوامره وارتكاب نواهيه ـ سبحانه عزَّ وجلَّ ـ ، وقيل : المُترف هو الذى أترفته النعمة أى : أبطرته وأطغته .

٤٦ ـ (وَكَانُواْ يُصِرُّون عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ) :

أى : وكانوا يُصَمِّمون بل ويُقيمُون ويُدَاومُون على الذَّنب العظيم والكبائر كالشِّرك ، وقيل : الحنث اليمين الغموس ، وظاهره الإطلاق ليعمّ كل ذلك ، وما ذكر تمثيل له ، وقال التاج السُّبكى فى طبقاته : سأَلت الشَّيخ ـ يعنى والده تقىّ الدِّين ـ : ما الحنث العظيم ؟ فقال : هو القسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله ـ تعالى ـ : « وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَايَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ »[1] وهو تفسير حسن ؛ لأَن الحنث وإن فُسِّر بالذَّنب مطلقًا أَو العظيم منه فالمشهور استعماله فى عدم البرّ بالقسم ، وتُعُقِّب هذا بأَنه يترتب عليه التكرار فى قوله ـ تعالى ـ : (وَقَالُواْ أَئِذَا مِتْنَا ...) الآية .

وأُجيب بأَنه لا تكرار ؛ لأَن المراد بالأَول فى قوله تعالى : (وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ) وصفهم بالثبات على القسم الكاذب وبالثانى فى قوله ـ تعالى ـ :

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً) إلخ ـ وصفهم بالاستمرار على الإنكار على أنه لامحذور فى تكرار ما يدل على إنكارهم البعث .

٤٧ ـ (وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) :

أى : وكانوا يقولون منكرين للإعادة مكذِّبين بالبعث مستبعدين لحصوله : أئذا متنا وكان بعض أجزائنا تراباً وبعضها عظاماً نخرة أئنا لعائدون إلى الحياة مرة أُخرى ونُبعث ، إن هذا لمُستبعد وقوعه ولا يمكن حصوله وحدوثه ، وتقديم التراب ؛ لأَنه أبعد عن الحياة التى يقتضيها ماهم بصدد إنكاره من البعث .

(١) سورة النحل من الآية : ٣٨

٤٨ - (أَوَ ءَابَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ) :

عطف على محل إن واسمها أو على الضمير المُستتر فى (مبعوثون) والمعنى : أو يبعث - أيضاً - آباؤُنا الأَقدمون الذين صاروا تراباً متفرّقاً فى الأَرض - يقولون ذلك زيادة فى الاستبعاد لحصول البعث يعنون أن آباءَهم أَقدم فبعثهم أَبعد وأَبطل .

٤٩ ، ٥٠ - (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) :

أى : قل لهم يا مُحَمّد : ردًّا لإنكارهم وتحقيقا للحقّ : إن الأَوّلين والآخرين من الأُمم ومن جملَتهم أنتم وآباؤُكم لمجموعون بعد البعث إلى ميقات يوم معلوم وهو يوم القيامة ، ومعنى كونه معلوماً : أنه معيّن عند الله ، والميقات : مَاوُقِّت به الشىءُ أى : حُدّ ومنه مواقيت الإحرام وهى الحدود التى لايتجاوزها مَن يريد دخول مكة إلا مُحْرِما والمعنى : لمجموعون منتهين إلى ذلك اليوم .

وتقديم الأَوّلين فى قوله : (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ) للمبالغة فى الرّد حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشدّ من إنكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودى .

٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ - (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ) :

(ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ) عطف على (إِنَّ الْأَوَّلِينَ) داخل فى حيِّز القول . وثم للتراخى الزمانى . أى : قل لهم : ثم إنكُم أَيهَا الكافرون الضالون عن الهدى المكذِّبون بالبعث أو بما يعمه وغيره ، والخطاب لأَهل مكة وأمثالهم (لَآكِلُونَ) بعد دخول جهنم من شجر هو الزقوم وهو شجر فى جهنّم قبيح المنظر كريه الطّعم والرّائحة فمالئون من هذا الشجر بطونكم من شدة الجوع الّذى اضطركم وقسركم على أكل مثلها ممّا لا يؤكل وتعافه النّفوس .

٥٤ ، ٥٥ - (فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ) :

أى : فشاربون عقيب ذلك بلاريْث على ما تأْكلون من هذا الشّجر من الحميم وهو المـاء الّذِى اشتد غليانه - وقيل صديد أهل النّار - أى : يُورثهم حَر ما يأْكلون من الزقوم مع

الجوع الشديد عطشاً فيشربون ماءً يظنُّون أنَّه يزيل العطش ويذهب الظمأ فيجدونه شديد الحرارة .

﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾[1] :

أى : فشاربون بكثرة كشرب الإبل العطاش أو المريضة التى لاتروى بشرب الماء فلا يكون شربكم شرباً معتادًا بل يكون مثل شرب الهيم .

قال الزمخشرى : والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقُّوم فإذا أكلوا وملأُوا منه البطون سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الَّذِى يقطع أمعاءهم فيشربونه شرب الهيم .

وقيل ﴿ الْهِيمُ ﴾ : الرِّمال التى لا تُرْوَى من الماء لتخلخلها ، ومفرده هَيَام بفتح الهاء .

٥٦ ـ ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ :

أى : هذا الَّذِى ذكِر من ألوان العذاب الَّذِى تقشعر منه النُّفوس وتذوب من هوْله لفائف القلوب هذا الَّذِى ذكر نُزُلهم يوم الدِّين أى : يوم الجزاء وهو يوم القيامة ، فإذا كان ذلك نُزُلهم وهو ما يقدَّم للنَّازل مما حضرفما ظنك بما ينالهم بعد دخولهم النار ، وفى جعله ألوان العذاب وأنواعه السابقة نُزُلًا أى : مما يُكرم به النَّازل فيه من التهكم ما لا يخفى ، ونظير ذلك قول الشاعر :

وكنَّا إذا الجبار بالجيش ضافنا   جعلنا القنا والمرهفات له نُزُلا

قال ابن كثير فى قوله ـ تعالى ـ : « هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ » أىْ : هذا الَّذِى وصفنا ـ يقصد من ألوان العذاب السابق ذكره فى الآيات السابقة ـ هو ضيافتهم المعدة الدائمة عند ربهم يوم حسابهم كما قال ـ تعالى ـ فى حق المؤمنين :

---

(١) قال ابن عباس وغيره : الهيم : جمع أهيم وهو الجمل الذى أصابه الهيام وهو داء يشبه الاستسقاء يصيب الإبل فتشرب حتى تموت أو تسقم سقماً شديداً يقال : إبل هيماء وناقة هيماء ، كما يقال : جمل أهيم . اهـ : آلوسى .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » (١) .

أى : ضيافة وكرامة .

(نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(أَفَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى .

(مَا تُمْنُونَ) ما تقذفونه وتصبّونه فى أرحام النِّساءِ من المنىِّ .

(قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ) : قضينا به بينكم ، وكتبناه عليكم .

(وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) : وما نحن بعاجزين ولا مغلوبين .

(عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ) : على أن نبدّل صوركم بغيرها ونغيِّر خلقكم .

(وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ) أى : نخلقكم فى خلق وصور لا تعرفونها أو ننشئكم فى البعث ونخلقكم على غير صوركم فى الدنيا .

(النَّشْأَةَ الْأُولَى) : خَلْقكُمْ من نطفة ثم من علقة إلخ ، أو خَلْق آدم ونشأته من تراب .

---

(١) سورة الكهف الآية : ١٠٧

التفسير

٥٧ ـ (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ) :

يقول الله ـ تعالى ـ مقررًا للمعاد ورادًا على المكذبين من أهل الزيغ والإلحاد الَّذِين قالوا : (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) يقول ـ تعالى ـ رادًا عليهم ـ :

(نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ) أى : نحن ابتدأنا خلقكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكورًا أليس الَّذى قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى ولذا قال : (فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ) أى : فهلاً تصدّقون بالبعث ـ تحريض لهم وتحضيض على الإيمان به . وقال الزَّمخشرىّ : (فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ) تحضيض على التّصديق إمّا بالخلْق ؛ لأَنَّهم وإن كانوا مصدِّقين به بدليل قوله ـ تعالى ـ : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » [1] إلاَّ أنَّهُم لمّا كان مذهبهم وسلوكهم فى الحياة خلاف ما يقتضيه التّصديق فكأنّهم مكذّبون به ، وإمّا تحضيض على التّصديق بالبعث ؛ لأَنَّ من خلق أوَّلًا لا يمتنع عليه أن يخلق ثانياً ، واختار الآلوسى الرأى الأوّل .

٥٨ ، ٥٩ ـ (أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۞ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَٰلِقُونَ) :

أى : أخبرونى ما تقذفونه فى أرحام النساء من المنىّ أأنتم تقدّرونه وتتعهدونه فى أطواره المختلفة وتصوّرونه بشرًا سويًا تام الخلقة أم نحن المقدّرون المصوّرون ، قال القرطبى : وهذا احتجاج عليهم أى : إذا أقررتم بأنّا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث .

٦٠ ، ٦١ ـ (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ) :

(نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ) أى : نحن قضينا به بينكم وكتبناه عليكم وقسمناه ووقتنا موت كلّ أحد بوقت معيّن حسبما تقتضيه مشيئتنا وما نحن بمسبوقين ولا عاجزين ولا مغلوبين (عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ) أى : على أن نذهبكم ونأتى

(١) سورة العنكبوت من الآية : ٦١

مكانكم أشباهكم من الخلق (وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ) من الخلق والصور والأطوار التى لا تعرفونها ولا تعهدونها والمراد : ونحن قادرون على ذلك أيضاً .

قال الزمخشرىّ : المعنى إنّا لقادرون على الأمرين معاً ، على خلق ما يماثلكم ومالا يماثلكم فكيف نعجز عن إعادتكم ، وقال القرطبىّ : المعنى : وننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا فيُجَمّل المؤمن ببياض وجهه ويقبّح الكافر بسواد وجهه مثلا ـ قاله سعيد بن جبير .

٦٢ ـ (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) :

أى : ولقد أيقنتم أن الله ـ سبحانه ـ أنشأكم النشأة الأُولى من خلقكم من نطفة ثم من علقة ثم مضغة إلخ ـ وقال قتادة : وهى خلق آدم من التراب فهلّا تتذكرون أنّ من قدر عليها فهو على النشأة الأُخرى أقوى وأقدر . وفى الخبر : (عجباً كلَّ العجب للمكذِّب بالنَّشأة الآخرة وهو يرى النَّشأة الأُولى ، وعجبا للمصدِّق بالنَّشأة الآخرة وهو لا يسعى لدار القرار » ا هـ. آلوسى وقرطبى بتصرف .

(أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(مَا تَحْرُثُونَ) : ما تبذرون حبه وتعملون فى أرضه .

(تَزْرَعُونَهُ) : تنبتونه وتروونه نباتاً يرفّ .

(حُطَاماً) : هشيماً متكسِّرًا قبل أن يبلغ نضجه .

(تَفَكَّهُونَ) : تتعجّبون من سوء حاله وتندمون .

(إِنَّا لَمُغْرَمُونَ) : لمعذبون بهلاك أموالنا .

(نَحْنُ مَحْرُومُونَ) : لا حظ لنا أو محرومون الرّزق بالكلية .

التفسـير

٦٣ ، ٦٤ - (أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) :

هذه حجّة أخرى ودليل على البعث ، أى : أخبرونى عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البذر أأنتم تنبتونه وتحصّلونه زرعاً فيكون فيه السنبل والحبّ أم نحن نفعل ذلك ، وإنَّما منكم البذر وشقّ الأرض ؟ فإذا أقررتم بأنَّ إخراج السنبل من الحَبِّ الذى بُذر ليس إليكم فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وبعثهم ؟ وأضاف الحرث إليهم والزّرع إليه - تعالى - لأنَّ الحرث فِعلُهم ويجرى على اختيارهم . والزرع من فعل الله وينبت على اختياره لا على اختيارهم - روى أبو هريرة عن النّبى ﷺ أنّه قال: « لا يقولنَّ أحدُكم زَرعتُ ولْيَقُلْ حَرثتُ فإنَّ الزّارعَ هو اللهُ »[1] .

قال أبو هريرة : ألم تسمعوا قول الله - تعالى - (ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) .

قال الماوردىّ : وتتضمّن هذه الآية أمرين : أحدهما : الامتنان عليهم بأنه أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم - الثانى : البرهان الموجب للاعتبار ؛ لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشى بذره وانتقاله إلى استواء حاله من العفن والتتريب حتى صار زرعاً أخضر ثم جعله قويًّا مشتدا أضعاف ما كان عليه ، فهو بإعادة مَنْ أمات أقوى عليه وأقدر .

وفى هذا البرهان مقنع لذوى الفطر السليمة .

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ -(لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) :

(١) انظر سنن البيهقى ج ٦ ص ١٣٨ باب ما يستحب من حفظ المنطق فى الزرع .

(لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً) أى : نحن أنبتنا ما تحرثون بلُطفنا ورحمتنا وأبقيناه لكم رحمة بكم . (لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً) أى : هشيماً متكسراً متفتتا لشدة يبسه من بعد ما أنبتناه قبل استوائه واستحصاده فظللتم بسبب ذلك (تَفَكَّهُونَ) أى : تتعجّبون من سوء حاله إثر مشاهدتكم له على أحسن حال – روى ذلك عن ابن عبّاس – وقال الحسن : تندمون على ما تعبتم فيه وأنفقتم عليه من غير حصول نفع ودليله قوله– تعالى– : « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ أنفَقَ فِيهَا »[1] أو تندمون على ما اقترفتم لأجله من المعاصى ، وقال عكرمة : تتلاومون على ما فعلتم – وأصل التفكّه : التّنقل بصنوف الفاكهة ، استعير للتّنقل بألوان الحديث ، وهو هنا ما يكون بعد هلاك الزرع وقد كنى به فى الآية عن التعجب أو الندم أو التلاوم كما سبق .

(إِنَّا لَمُغْرَمُونَ) أى: لظلتم تفكهون فى المقالة وتنوعون كلامكم فيها فتقولون تارة إنا لمغرمون أى معذبون أو مهلكون بهلاك رزقنا من الغرام وهو الهلاك، أو لملزمون الغرم بعد جهدنا فيه .

(بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) وتقولون تارة أخرى : بل نحن محرومون . أى : سيئو الحظ محدودون لا مجدودون ، أو محرومون من الرزق بالكلية ، كأنهم لما قالوا :إنا لمعذّبون لملزمون الغرم بعد بذل الجهد أضربوا عن ذلك وقالوا : بل هذا أمر قدر علينا لنحس طالعنا وعدم حظنا ، أوبل نحن محرومون الرزق بالكلّية . وعن أنس أن النبى ﷺ مرّ بأرض الأنصار فقال : « ما يمنعكم من الحرث » ؟ قالوا : الجدوبة ، فقال : لا تفعلوا فإنّ الله – تعالى – يقول : أنا الزّارع إن شئت زرعت بالماء وإن شئت زرعت بالريح وإن شئت زرعت بالبذر ثم تلا (أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)[2] .

---

(١) سورة الكهف من الآية : ٤٢

(٢) انظر تفسير القرطبي ج١٧ ص٢٢٠ تفسير قوله – تعالى – :« بل نحن محرمون » فقد ورد الحديث بلفظه .

(أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾)

المفـردات :

(الْمُزْنِ) : السَّحاب واحدته مُزْنة ، وقيل : الأَبيض منه خاصّة وهو أعذب ماء .

(أُجَاجاً) : مِلْحا زُعاقا مُرًّا لا يصلح لشرب ولا لزرع .

(تُورُونَ) : توقدون وتقدحون الزناد لاستخراجها .

(أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا) : أأنتم أنبتم شجرتها التى منها الزناد .

(تَذْكِرَةً) : تذكيرا لنار جهنم عند رؤيتها .

(وَمَتَاعاً) : ومنفعة .

(لِلْمُقْوِينَ) : للذين يَنْزِلُون القواء وهى القفر أو للمسافرين ، والمراد المُسْتَمتعون بالنار والمُحتاجون إليها .

التفسـير

٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ـ (أَفَرَءَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْنَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) .

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ) أفرأيتم الماء العذب الذِى تَشربون منه لتحيوا به أنفسكم وتسكنوا به عطشكم ، أأنتم أنزلتموه من السّحاب أم نحن المنزلون له بقدرتنا ، فإذا عرفتم بأنا ننزله فلم لا تشكرونني بإخلاص العبادة لى ؟ ولم تنكرون قدرتى على الإعادة ؟ وتخصيص الماء بهذا الوصف (الَّذِى تَشْرَبُونَ) مع كثرة منافعه ؛لأن الشرب أهم المقاصد المنوطة به ، وإنزال الأمطار يتطلب أحوالا جوية خاصة لايمكن أن يسيطر عليها الإنسان سيطرة كاملة أو يوفّرها صناعيًا توفيرًا تامًّا بسهولة مثل هبوب تيار بارد فوق آخر ساخن ولقد حاول الإنسان استمطار السُّحب العابرة صناعيا ، إلا أن هذه المحاولات لاتزال مجرّد تجارب على أن الثابت علميا أن نجاح بعض هذه التجارب تـمّ على نطاق ضيِّق جدًّا مع وجوب توافر بعض الظروف الملائمة . ا هـ .

(لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً) أى : لو نشاء صيرناه أُجاجاً أى مِلْحاً زعاقا لا يستساغ ولايمكن شربه من الأجيج وهو تلهب النار ، وقيل الأجاج : كل ما يلذع الفم ولا يمكن شربه فيشمل الملح والمر والحار .

(فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) حث وتحضيض على شكر جميع النعم لأنّه أفيد وأشمل ، دون عذوبة الماء فقط ، نعم ورد أنّ رسول الله ﷺ كان إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذى سقانا عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحا أُجاجا بذنوبنا » قال ابن الأثير : إن اللام فى « لجعلناه » أُدخلت فى المطعوم دون المشروب ؛لأنّ جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً فى العرف والعادة ، وأما المطعوم فإنّ جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد ، وإذا وقع يكون عن سخط شديد . ا هـ . بتصرف .

٧١ ، ٧٢ـ (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ * ءأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ) :

(أفرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ) : أخبرونى عن النار التى تظهرونها بالقدح ـ من الشّجر الرّطب ـ أأنتم أنشأتم تلك الشجرة وأودعتم فيها النّار أم نحن المنشئون الخالقون ؟ فإذا عرفتم قدرتى فاشكرونى ولا تنكروا قدرتى على البعث .

٧٣ ـ (نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ) :

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً) استئناف معين لمنافع النار مبين لفوائدها أى : نحن جعلنا النار تذكيرًا لنار جهنم حيث علَّقنا بها أسباب معاشهم لينظروا إليها ويذكروا بها ما أوعدوا به وهددوا ، أو جعلناها تذكرة وأنموذجا من جهنم لما فى الصَّحيحين وغيرهما عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « نارُكم هذه الَّتى تُوقدون جزءٌ من سبعين جزءًا من نارِ جهنم » وقيل : تبصرة فى أمر البعث؛لأنَّ من أخرج النَّار من الشَّجر الأَخضر المضادّ لها قادر على إعادة ما تفرقت موادّه (وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ) ومنفعة لهم ، والمقوون الَّذين ينزلون القواء وهى القفر وتخصيص المقوين بذلك؛لأنهم أحوج إليها فإن المقيمين ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزِّناد ، وقيل (لِلْمُقْوِينَ) أى : المسافرين أو الفقراء والجائعين ولعلّ الأَقرب أنَّ المراد بالإقواء : الاحتياج فإن المنتفع بالنار محتاج إليها .

٧٤ ـ (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) :

هذا القول مرتَّب على ماعدّد من بدائع صُنْعِه وروائع نِعَمِه ، والمراد فَدُم على التَّسبيح واستمر عليه بذكر اسم ربك العظيم؛لأنَّه عليه السَّلام غير معرض عن ربِّهِ ، وتعقيب الأَمر بالتَّسبيح بعد ما عدد وذكر من النعم إمّا أولا : لتنزيه سبحانه عما يقوله الجاحدون لوحدانيته عزَّ وجلَّ، الكافرون بنعمه مع عِظَمِهَا وكثرتها ،أو ثانياً للشكر على تلك النِّعم السابقة التى عدَّهَا ونبه عليها ، أو ثالثاً للتعجب من أمرهم فى غمط آلائه وآياته الظاهرة ، ويحتمل الكلام عموم الخطاب لكل من يتأَتى خطابه ...

* (فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾)

المفردات :

(بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) : بمساقطها ومغاربها ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى فى التفسير .

(مَكْنُونٍ) : مصون ومحفوظ

التفسير

٧٥ ـ (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) :

لما ذكر الله ـ سبحانه ـ فى الآيات السابقة جزاء كل من السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وما يلقونه من نعيم تتفاوت درجاته وتتباين منازله حسب مقام كل من الطائعين ، وما يناله ويعانيه أهل الشقاء وأصحاب الشمال من عذاب مقيم فيه شدة عليهم وإيلام بهم جزاء ماكانوا يعملون فى الدنيا من كفر وعصيان ونكران ليوم يبعث الله فيه عباده للحساب ، لما ذكر ذلك جاء قوله ـ تعالى ـ :(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) وما بعده من الآيات للتأكيد على أن القرآن الكريم الذى ذكرت فيه تلك الأمور هو من عند الله ـ جل شأنه ـ وفى قوله ـ تعالى ـ : (فَلَا أُقْسِمُ) حلف وقسم بناء على أن (لَا) جاءت فى النظم الكريم لتأكيد القسم وتقويته ، نظير ذلك قوله ـ تعالى ـ : (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ)[1] أى : ليعلم أهل الكتاب ، ويتلاقى مع هذا الرأى قراءة الحسن (فَلَأُقْسِمُ) نقول : هذا ما يقتضيه سياق الآيات وما عليه جمهور المفسرين ، وذهب بعضهم إلى أن (لَا) نفى وردّ

(١) سورة الحديد من الآية : ٢٩

لما يقوله الكفار فى القرآن من أنه سحر وشعر وكهانة كأنه قيل : لا صحة لما يقولون فى القرآن الكريم من هذا الافتراء ثم قيل : (أقسم) وهذا منسوب إلى سعيد بن جبير وبعض النحاة .

ومواقع النجوم : مساقطها ومغاربها وخصها – جلت قدرته – بالقسم لما فى غروبها من ذهاب أثرها وذلك للدلالة على وجود حكيم دائم لا يتغير يؤثر فيها ظهوراً وخفاء ، وقد استدل الخليل إبراهيم – عليه السلام – بأفول الكوكب ، وغروب القمر ، وذهاب الشمس على وجود الصانع الذى لا يغيب ولا تأخذه سنة ولا نوم ، أو أقسم – سبحانه – بها فى هذا الوقت لأنه أوان قيام المتهجدين وانقطاع المتبتلين إليه – تعالى – ونزول رحمته وفيض رضوانه عليهم . وقد ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعاً : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : مَنْ يدعونى فأستجيبَ له ، مَن يسألنى فأعطيَه ، من يستغفرنى فأغفرَ له »[1] . والنزول كناية عن القرب والعناية .

وقال جماعة منهم ابن عباس – رضى الله عنهما – : النجوم نجوم القرآن ، ومواقعها أوقات نزولها ، فإن القرآن نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً فى السنين بعد .

٧٦ – (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) أى : وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم جليل ، لو تعلمون قدره ومكانته لعظمتم المقسم عليه وهو القرآن الكريم .

٧٧ – (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) أى : إن هذا القرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ حسن مرضىّ رفيع القدر فى جنسه بين الكتب المنزلة من عند الله ، كثير المنافع ، أو كريم على الله أو على المؤمنين ؛ لأنه كلام ربهم وشفاء صدورهم ، وقيل : كريم لما فيه من كريم

---

(١) انظر صحيح البخارى ج ٢ ص ٦٦ كتاب التهجد بالليل ، باب الدعاء والصلاة آخر الليل فقد ورد الحديث بلفظه .

الأخلاق ومعالى الأمور ، وقيل : لأنه يكرِّم حافظه ويعظِّم قارئه ، والحق أن القرآن الكريم جدير وحقيق بهذه الصفات جميعاً .

٧٨ - (فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ) :

أى : فى كتاب جليل عظيم القدر مصون ومحفوظ من التبديل والتغيير والباطل والبهتان والمراد بقوله : (كِتَابٍ) قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : هو المصحف الذى بأيدينا لا يعتريه تحريف ولا زيف .

٧٩ - (لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) :

أى : لا يصل ولا يفضى إلى القرآن ولا يطلع عليه ولا على ما فيه إلاَّ المنزهون عن كدر الطبيعة ودنس الحظوظ النفسية وهم الملائكة ، أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنه قال فى الآية : ذاك عند رب العالمين (لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) من الملائكة ، أما عندكم فيمسه المشرك والنجس والمنافق الرجس ، وقيل :(لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) من الشرك وهم المؤمنون وروى عن الإمام محمد الباقر وعطاء وطاوس وسالم والشافعى وغيرهم - رضى الله عنهم جميعاً - أن المراد بهم : هم المطهرون من الأحداث ، والخلاف فى ذلك مبسوط فى كتب الفقه ولكل رأيه ، فمن أراد مزيداً فليرجع إليها .

ومع هذا الاختلاف لم ينازع أحد فى دلالة الآية على عظم شأن القرآن ، وعظيم الاعتناء به ولاينحصر هذا بمنع غير الطاهر من مسه بل يكون بأشياء كثيرة تدل على تعظيمه وتوقيره .

٨٠ - (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) :

أى : القرآن الكريم منزل من لدن رب العالمين فهو - سبحانه - هو الذى ربَّاهم ورعاهم وبلغ بهم الغاية خَلْقاً وإبداعاً .

وليس القرآن العظيم كما يقولون ويزعمون أنه من عند غير الله ، وأنه سحر وشعر وكهانة ، بل هو الحق الذى لامرية فيه ، والكفار والمشركون قد أقروا بذلك وعلموه ولكنهم ينكرونه كبراً وعناداً كما قال - تعالى - : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ »[1]

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٣٣

ووصف القرآن بقوله : (تَنزِيلٌ) لأنه نزل منجماً مفرقاً من بين سائر الكتب المنزلة من عند الله - تعالى - فإنها قد نزلت دفعة واحدة ولقد جرى هذا اللفظ (تَنزِيلٌ) مجرى أسماء القرآن وأطلق عليه فقيل : جاء فى التنزيل كذا ، ونطق به التنزيل يريدون به القرآن الكريم .

(أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾)

المفـــردات :

(مُدْهِنُونَ) : متهاونون به كما يَدَّهن فى الأمر أى : يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به[1]

التفسير

٨١ - (أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ) :

أى : أتعرضون فبهذا القرآن الكريم أنتم متهاونون كمن يتهاون فى الأمر ويلين فيه استهانة به وحطًّا من شأنه ، وعن ابن عباس والزجاج (مُدْهِنُونَ) : مكذبون .

٨٢ - (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) :

أى : وتجعلون جزاء رزق الله لكم وتفضله عليكم بنعمه التى لاتحصى ولاتعد أنكم تكفرون بربكم وتكذبون القرآن الناطق بأن الله هو الذى أغاثكم ، وأنزل

---

(١) وأصل الادهان : جعل الأديم (الجلد) ونحوه مدهوناً بشىء من الدهن حتى يلين .

عليكم المطر فأنبت لكم به الزرع وأدرَّ به الضرع ، وأطفأ ظمأكم ، وأحياكم به كما أحيا الأرض بعد موتها ، وتنسبون ما حل بكم من عظيم فيضه إلى النجوم والأنواء فتقولون : مطرنا بنوء كذا[١] .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما : عن زيد بن خالد الجهنى قال : « صلى رسول الله ﷺ الصبح فى الحديبية فى إثر سماء (بعد مطر) وكانت من الليل ، فلما سلم أقبل علينا فقال : « هل تدرون ما قال ربكم فى هذه الليلة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم فقال : قال : (ما أنعمت على عبادى نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين ، فأما من آمن بى وحمدنى على سقياى فذلك الذى آمن بى وكفر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك الذى آمن بالكوكب وكفر بى) .

(فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(الْحُلْقُومَ) : تجويف خلف تجويف الفم[٢] .

(غَيْرَ مَدِينِينَ) : غير مربوبين لله من دان السلطان الرعية إذا ساسهم وتعبدهم وقيل : غير ذلك وسيأتى .

---

(١) النوء : سقوط نجم فى المغرب وطلوع آخر يقابله من ساعته فى المشرق . إهـ. قاموس .
وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها ، وقيل إلى الطالع ؛ لأنه فى سلطانه ، نهى الإسلام عن ذلك ؛ لأن ذلك شأن الله وحده .

(٢) وفيه ست فتحات ، فتحة الفم الخلفية ، وفتحتا المنخرين ، وفتحتا الأذنين ، وفتحة الحنجرة وهى مجرى الطعام والشراب والنفس — من المعجم الوجيز — مجمع اللغة العربية .

التفسير

٨٣ ، ٨٤ - (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ) :

الضمير فى قوله - تعالى - : (بَلَغَت) للروح ولم يتقدم لها ذكر؛ لأن المعنى معروف وواضح ونظيره قول حاتم الطائى :

أماوىّ ما يغنى الثراءُ عن الفتى إذا حشرجت[1] يوماً وضاق بها الصدر

والروح - كما ذهب سلف هذه الأُمة المحمدية - جسم لطيف سار فى البدن سريان ماء الورد فى الورد ، وهو حىّ بنفسه يتصف بالخروج والدخول وغيرهما من صفات الأَجسام . (فَلَوْلَا) هذا حث وتحضيض أُريد به التبكيت والتعجيز أى : فهلاَّ إذا بلغت ووصلت الروح إلى حلقوم ذلك الذى حان حينه ، ودنا أَجله ، وهو يجود بنفسه ، وأَنتم أَيها الحاضرون حوله فى هذا الوقت تشاهدون ما يعانيه من سكرات الموت ، وما يقاسيه من غمراته .

٨٥ - (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ) :

أَى : ونحن بعلمنا وقدرتنا أَو بملائكتنا الموكلين بذلك أَقرب إلى ذلك المحتضر فى كل هذا منكم حيث لا تعرفون مِنْ حاله إلَّا ما تشاهدونه من آثار الشدة النازلة به من غير أَن تقفوا على حقيقتها وكيفيتها وأَسبابها ولا تقدروا على دفعها بما ينفع مع تعطفكم وشفقتكم عليه وتوفركم على إنجائه من المهالك .

٨٦ ، ٨٧ - (فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

أَى : فهلَّا إن كنتم - كما تزعمون - غير مربوبين لله وغير مخلوقين له ولستم فى قهره وسلطانه ، أَو غير مجزيين ولا محاسبين بأَعمالكم يوم القيامة ، وذلك بإنكاركم البعث فهلَّا (تَرْجِعُونَهَا) أَى : ترجعون الروح إلى جسدها وتعيدون إليه الحياة كاملة (إِن كُنتُمْ

---

(١) فالضمير فى حشرجت يرجع إلى الروح وهى مفهومة من الكلام .

صَادِقِينَ) فى دعواكم أنكم غير مربوبين أو لا محاسبين ولا مبعوثين فارجعوا الأرواح إلى الأبدان . ولن تستطيعوا ذلك فبطل زعمكم .

(فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾)

المفردات :

(فَرَوْحٌ) : الرَّوْح – بفتح الراء – الرحمة أو الاستراحة .

(وَرَيْحَانٌ) : الريحان : كل مشموم طيب من النبات .

(فَنُزُلٌ) : النُّزُول : مايُعد ويُقدم للضيف من الزاد .

(حَمِيمٍ) : ماءٌ شديد الحرارة .

(تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) : إدخال فى النار ومقاساة لألوان عذابها .

(حَقُّ الْيَقِينِ) : عين اليقين ونفسه الذى لامرية فيه .

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ) : فنزه ربك عما لايليق به .

التفسير

٨٨ ، ٨٩ـ (فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ) :

هذا شروع فى بيان حال المتوفى بعد الممات وماينتظره من ثواب أو عقاب إثر بيان حاله عند الوفاة وما لاقاه من سكرات الموت وشدائده .

(فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ) أى : فأَمَّا إن كان المتوفى من السابقين من الأزواج الثلاثة الذين ورد ذكرهم فى أول السورة فله استراحة من الدنيا وعنائها وكدرها ، أوله رحمة واسعة من الله – تعالى – وله ريحان يتمتع برائحته الطيبة ، فهو فى هناءة بال ، وسعة فضل ورحمة ومكان عبق بأريج عطر يفوح شذاه وينتشر عَرْفه ، ومقره فى الجنان يتمتع فيها ويسعد .

٩٠ ، ٩١ـ (وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ) :

أى : وأما إن كان هذا المتوفى من أصحاب اليمين وهم أهل اليمن والبركة والسلامة فى آخرتهم ، وأصحاب المنزلة الجليلة عند ربهم فيقال له : سلامٌ لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال فى ذلك : تأتيه الملائكة من قِبَل الله – تعالى – تسلم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين وذلك عند موته ، وقيل : عند بعثه يوم القيامة تسلم عليه الملائكة قبل وصوله إليها ، ويحتمل أنه يسلم عليه فى هذه المواطن كلها ، ويكون ذلك إكرامًا بعد إكرام .

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ـ (وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّآلِّينَ ، فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ، وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) :

أى : أما إن كان المتوفى من المكذبين بالبعث المنكرين له ، الضالين الذين زلوا وبعدوا عن الهدى وضاعوا وتاهوا فى دروب الهوى والمعاصى ونأوا عن الحق فجزاؤهم أن يقدم لهم الماء المتناهى فى الحرارة – على سبيل الإهانة لهم والتنكيل بهم والسخرية منهم – يشربونه بعد أكل الزقوم يصهر به ما فى بطونهم ولهم مع ذلك إدخال وإقامة وخلود فى النار يذوقون سعيرها ويقاسون ألوان عذابها .

٩٥، ٩٦ ـ (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) :

أى : إن ماذكر فى تلك السورة وقصصناه عليك لهو محض اليقين وخالصه ، وقال قتادة فى هذه الآية : إن الله ليس بتارك أحدًا من الناس حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن فأَمَّا المؤمن فأَيقن فى الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة ، وأَمَّا الكافر فأَيقن يوم القيامة حين لاينفعه اليقين .

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) : هذا ترتيب[1] وأمر بالتسبيح؛لأَن ماورد فى هذه السورة الكريمة يُوجب أن يُنَزِّه الله ـ تعالى ـ عما لا يليق مِمَّا ينسبه الكفار إليه ، سواءٌ كان ذلك منهم قولًا أو عملًا أو حالا « تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » . أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم وصححه ، وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهنى قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » قال : « اجعلوها فى ركوعكم » ولما نزلت « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال : « اجعلوها فى سجودكم » والله أعلم .

---

(١) كما تشير إليه الفاء فى قوله تعالى : (فَسَبِّحْ) .

((سـورة الحديد))

هذه السورة الكريمة من السور المدنية وآياتها تسع وعشرون آية

سبب التسـمية :

وسميت بهذا الاسم لذكر الحديد فيها ، وهو ذو أثر عظيم فى حياة الناس جميعًا حاضرهم وباديهم فى سلمهم وحربهم ، فعليه تقوم المصانع التى تمد الإنسان بما يحتاجه فى طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه ، وبه يدافع عن وطنه وحرماته فمنه تصنع الأسلحة البرية والبحرية والجوية إلى غير ذلك من أنواع القوة والبأس وشتى المنافع الجليلة للبشرية : (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) .

مناسبتها لما قبلها :

إن سورة الواقعة ختمت بطلب التسبيح والتنزيه لله « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » . وهذه السورة بدئت بالتسبيح (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) فكان أول سورة الحديد واقع موقع التعليل لما فى آخر سورة الواقعة فكأنه قيل : « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » ؛ لأنه (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

ما جاء فى فضلها مع اخواتها :

أخرج الإمام أحمد والترمذى وحسنه النسائى وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمـان عن عرباض بن سارية « أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد » .

بعض مقاصد السـورة :

١ ـ تحدثت السورة فى أولها عن أن الله ـ تعالى ـ تدين له المخلوقات جميعًا ، وتسبح بحمده ، وتنطق بلسان الحال أو بلسان المقال بعظمته وجلاله (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

٢ - ذكرت بعضًا من أسمائه - تعالى - التى تدل على تفرده وتوحده ، فهو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء ، وأنه الظاهر بقدرته وآثاره ، الباطن الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وأنه له ملك السموات والأرض خلقًا وإبداعًا ، وأنه العليم بكل ما يلج فى الأرض ، ويعلم كذلك ما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وأن الأمور كلها راجعة إليه وحده (وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .

٣ - تدعو السورة الكريمة إلى الإيمان بالله ورسوله ، وتنعى على الكافرين عدم الإيمان مع أن الرسول ﷺ يدعوهم ويذكرهم بما أخذه الله على عباده من المواثيق : (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ) فضلًا عمًا لهم من عقول بها يميزون الصحيح عن الفاسد .

٤ - كما تحدثت عن طلب الإنفاق والحث عليه والبذل فى سبيل الله (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

٥ - تعرضت السورة لذكر الفريقين : فريق الجنة ، وفريق السعير .

فأما الفريق الأول فيسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ليهديهم الصراط المستقيم - فيدخلون الجنة .

أما الفريق الضال فإنه لا نور له ويحال بينه وبين نور المؤمنين فلا يستطيع اللحاق بهم ويسخر منهم فيقال لهم : (ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) فلا يستطيعون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا بعمل المؤمنين حتى يلحقوا بهم .

٦ - مثلت السورة الكريمة الدنيا وما فيها من متاع زائل ولهو ولعب وتفاخر وتكاثر فى الأموال والأولاد ، مثلتها بالزرع الذى سقاه المطر الوابل حتى نضر وأينع وأعجب به الزُّرَّاع ثم يصيبه الذبول والضمور حتى يصير هشيمًا تذروه الرياح ، وكذلك أمر الدنيا تتزين وتأخذ زخرفها حتى يظن أهلها أنهم قادرون عليها فيأتيها أمر الله ليلًا أو نهارًا بالفناء فتصير كالزرع المحصود الذى لم يكن موجودًا بالأمس .

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾)

المفردات :

(سَبَّحَ لِلَّهِ) : نَزَّه الله عما لا يليق به[1] .

(الْأَوَّلُ) : الذى كان قبل كل شىء .

(الْآخِرُ) : الباقى بعد فناء كل شىء .

---

(١) قال الزمخشرى : أصله التعدى بنفسه؛ لأن معنى سبّحته : بعدته عن السوء منقول من سبح إذا ذهب وبعد.

(الظَّاهِرُ) : الذى يعرف بالأدلة الدالة عليه .

(الْبَاطِنُ) : الذى لاتدرك حقيقته ولاتحوم العقول حوله .

(يَلِجُ) : يدخل .

(يَعْرُجُ) : يصعد .

(يُولِجُ) : يُدخل .

التفسير

١ ـ (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

التسبيح : هو تنزيه الله ـ تعالى ـ اعتقادًا وقولًا وعملًا عمًّا لا يليق بجنابه ـ سبحانه ـ وأسند التسبيح إلى ما فى السموات والأرض ؛ليعم جميع ما فيهما من الموجودات عقلاء وغيرهم فتسبيح العقلاء يكون بلسان المقال ، فإنهم ينزهونه ويقدسونه بألسنتهم كما ينزهونه ـ بقلوبهم وأعمالهم ، أما بالنسبة لغير العقلاء فإن تسبيحهم يكون بلسان الحال أى : إن حدوث هذه الموجودات على ما هى عليه من إبداع وإتقان يدل على الصانع الواجب الوجود المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقص ، وذهب بعضهم إلى أن التسبيح على حقيقته فى الجميع العاقل وغيره ، وأن كل مخلوق يسبِّحه تسبيحًا قوليًّا مستدلين على ذلك بقوله ـ تعالى ـ : « وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »[1] .

وافتتحت سورة الإسراء بالمصدر « سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى ... » وبعض السور بالفعل الماضى (سَبَّحَ) كسورة الحديد ، وسورة الحشر وغيرهما ، وبعضها بالفعل المضارع (يُسَبِّحُ) كسورة الجمعة ، والتغابن ، وبعضها بفعل الأمر (سَبِّحْ) كسورة الأعلى ليشعر استيعاب هذه الكلمة لجميع ماتدل عليه من المصدر والفعل بأن المخلوقات من لدن إخراجها من العدم إلى الوجود إلى الأبد مسبحة مقدسة لذاته ـ سبحانه وتعالى ـ فى كل الأزمان قولًا وفعلًا ،

---

(١) سورة الإسراء من الآية : ٤٤

طوعًا وكرهًا ، (وَهُوَ الْعَزِيزُ) أى : القادر الذى لا ينازعه ولا يمانعه شىء ، فهو - سبحانه - لا نظير له ولا مثيل ، (الْحَكِيمُ) أى : الذى لا يفعل إلّا ما تقتضيه الحكمة ، ولعزته ينتقم من المكلف الذى لا يسبحه عنادًا ، ولحكمته يجازى من قدّسه ونزهه طواعية وانقيادًا .

٢ - (لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

أى : له - سبحانه - لا لغيره ملك السموات والأرض ملكًا حقيقيًا أبديًا غير حادث ، ولا زائل ، أما ملك غيره فهو موقوت بزمان مرهون بوقت يحدث بعد أن لم يكن ، ويزول مهما امتد به الزمن ، وهو - جل شأنه - يحيي الأشياء من العدم المحض ، ويميت كل شىء ويبقى وجهه الكريم وحده قال - تعالى - : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ • وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »[1] . وهو - تعالت قدرته - مقتدر ومتمكن من كل شىء مما نعلم ومما لا نعلم ، لا يعجزه أمر ، ولا يشغله شأن عن شأن .

٣ - (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) :

أى : هو وحده (الْأَوَّلُ) بلا ابتداء ، القديم الذى كان من قبل كل شىء ، فهو الموجد والمحدث للموجودات ، وهو (الْآخِرُ) بِلَا انتهاء ، الباقى - سبحانه - بعد فناء كل شىء ، (الظَّاهِرُ) بالأدلة الدالة عليه من خلق وإبداع (الْبَاطِنُ) الذى لا تُدرك حقيقته ولا تحوم حوله العقول ، ولا يعلم ذاته إلّا هو وحده - تبارك وتعالى - والواو الأُولى بين (الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ) تدل على أنه - سبحانه - الجامع بين الصفتين الأَولية والآخرية ، والواو التى بين (الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) للدلالة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء ، أما الواو الوسطى الواقعة بين (الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ) (و) (الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) فتدل على أنه هو الجامع بين مجموع الصفتين الأَوليين ، ومجموع الصفتين الأُخْرَيَيْن ، فهو مستمر الوجود فى جميع الأَوقات الماضية والآتية ، وهو فى جميعها ظاهر وباطن ، جامع للظهور بالأَدلة ، والخفاء فلا يدرك بالحواس[2] .

---

(١) سورة الرحمن الآيتان : ٢٦ و ٢٧

(٢) الكشاف بتصرف .

وختتمت الآية وذيلت بقوله ـ تعالى ـ : (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) لئلا يتوهم أن خفاءه ـ تعالى ـ عن الأشياء يستلزم خفاء الأشياء عنه ـ عز وجل ـ ولكن ليس الأمر كذلك ، بل هو ـ لا غيره ـ عالم كمال العلم وتمامه بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون .

٤ ـ (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

أى : هو ـ جلت قدرته ـ وَحْدَهُ الَّذِي أَوْجَدَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ فِي سِتَّةِ أَوْقَاتٍ أَوْ مِقْدَار ستة أيام من أيام الدنيا ولو شاء ـ سبحانه ـ لخلقها فى طرفة عين (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) أى : استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ، قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ : أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل ، فلا يقال : كيف ؟ ولم ؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حدٍّ ولا صفة يبلغها واصف أو يحدها حادّ . هذا هو مذهب سلف هذه الأمة ، أما مذهب الخلف فيؤولون الاستواء بالاستيلاء . ومذهب السلف ـ كما يقولون ـ أسلم ، ومذهب الخلف أحكم ولكل وجهته .

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا) أى : هو ـ سبحانه ـ يعلم علما لا يدانيه علم بما يدخل فى الأرض من القطر ، والبذر ، والحشرات ، والهوام ، والكنوز ، والموتى ، وغيرها يعلمه علماً تفصيلياً محيطاً ويعلم ـ كذلك ـ ما يخرج منها من نبات ونفائس ومعادن ونحوها مما تحويه الأرض وتضمه فى أثنائها (وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) أى : ويعلم ـ جلت عظمته ـ ما ينزل من السماء من ملائكة وشهب ومطر ورحمات أو نوازل ويعلم ـ أيضًا ـ ما يعرج فيها ويصعد إليها من كلم طيب ودعوات وعبادات أو ذرات البخار أو جن يسترق السمع أو أرواح تصعد إلى بارئها أو ملائكة ترفع أعمال العباد إلى مبدئها وخالقها قال ـ تعالى ـ : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ »[1] ، (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) أى : وهو ـ تعالى ـ مع خلقه جميعًا

---

(١) سورة الملك من الآية : ١٤

بعلمه وقدرته وتدبيره وقيوميته وذلك فى كل أحوالهم وشتى شئونهم قال - تعالى - : « وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ »[1] ، (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) أى : وهو - عز شأنه - بما تعملون وما تدعون وتتركون رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم محيط بسركم وجهركم فيجازيكم على ما يصدر منكم .

٥ - (لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ) :

هذا تأكيد لِمَا سبق فى أول السورة ، وتمهيد للتذكير بالبعث حيث ورد بعده قوله - تعالى - : (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) أى : له - لا سواه - ملك السموات والأرض فى الدنيا وإليه - وحده لا لغيره - جل وعلا - يصير أمر الخلائق فى الآخرة بعد أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

٦ - (يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

أى : أنه - سبحانه - يدخل الليل فى النهار بأن ينقص من الليل ويزيد فى النهار ، ويدخل النهار فى الليل بأن ينقص من النهار ويزيد فى الليل ؛ لأن حكمته تقتضى ذلك لصلاح الناس فى أمر معاشهم وللدلالة - على كمال قدرته ، وهو عليمٌ ومحيطٌ إحاطة تامة بما تكنه وتخفيه الصدور من أسرار وإن دقت وخفيت ، ولا يقدر أحد سواه على معرفة حقيقتها وكنهها ، ومن كان على هذه الصفات الجليلة فلا يستقيم أن يُعبد أحدٌ سواه .

---

(١) سورة يونس من الآية : ٦١

(ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾)

المفـردات :

(مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) : خلفاء فى التصرف فيه أو خلفاء عمن كان قبلكم .

(وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ) : قال مجاهد : هو الميثاق الأول وهم فى ظهر آدم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه ، وقيل : أخذ ميثاقكم بأن ركَّب فيكم العقول ، ونصب لكم الأدلة ومكنكم من النظر فيها .

(قَرْضاً حَسَنًا) : القرض ما أُخرج لاسترداد بدله ، والحسن ما كان بإخلاص بلا مَنّ ولا أذى .

التفسير

٧ - (آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) :

أى : صدقوا واعتقدوا بأن الله ربكم وأن محمدًا رسولكم ؛ لأن الإيمان شرط فى قبول الأعمال الصالحة ، وأنفقوا وتصدقوا من أموال الله التى فى أيديكم وقد أعطاكم ومولكم إياها تستمتعون بها ، وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها ، فليست هى بأموالكم فى الحقيقة وما أنتم فيها إلَّا بمنزلة الوكلاء والنواب ، ويسهل عليكم الإنفاق والبذل منها فى سبيل الله كما يسهل ويهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له فيه ، أو أنه - سبحانه - جعلكم فى هذا المـال خلفاء من الذين كانوا قبلكم من الوالدين والأقارب والأزواج ، وورثكم إيَّاه فاعتبروا بحالهم ، حيث انتقل منهم إليكم وسينقل منكم إلى الذين بعدكم ، فلا تبخلوا وانفعوا - أنفسكم بالإنفاق منها . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة سمعت قتادة يحدث عن مطرف عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ألهاكُمُ التكاثر ، يقول ابنُ آدمَ : مالى مالى وهل لك مِنْ مالك إلَّا ما أكلتَ فأفنيْتَ ، أو لَبِسْتَ فأبلَيْت ، أو تصدقتَ فأمْضَيْتَ » ورواه مسلم وزاد « وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركُهُ للناس » .

(فَالَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) أى : فالذين صدقوا وآمنوا بربهم ورسوله وأنفقوا مما منحهم الله وجعلهم مستخلفين فيه ، لهم أجرٌ عظيم جليل فى منزلته ، وكبير فى مقداره وهو الجنة ، ويا له من جزاء حسن كبير .

٨ - (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

جاء هذا القول الكريم للإنكار عليهم وتوبيخهم على ترك الإيمان أىْ : وأىّ عذر لكم فى ترك الإيمان بالله ، والحال أن الرسول ﷺ بين أظهركم يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويبينه لكم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة (وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ) وهو ما كان من إخراجهم من

ظهر آدم وأشهدهم بأنه – سبحانه – ربهم فشهدوا كما قاله البغوى ، وروى عن مجاهد وعطاء والكلبى وقتادة قال – تعالى – : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَا)[1] وهو العهد المأخوذ يوم الذر ، أو وقد نصب لكم الأدلة التى منها ما هو موجود فى أنفسكم قال – تعالى – : (وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) كما نشر – سبحانه – الآيات فى الآفاق ومكنكم من النظر فيها بما أودع فيكم من عقول .

وفى كُلِّ شَىْءٍ لَهُ آيَة تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِد

(إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) أى : إن كنتم مصدقين ومؤمنين فى وقت من الأوقات ، أو لموجب مّا فالآن أحرى بكم وأجدر أن تؤمنوا لقيام الأدلة والبراهين عليكم .

٩ – (هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) :

هذا ذكرٌ لبعض الأدلة والآيات الدالة على وجوب الإيمان به ، أى : هو – وحده – الذى ينزل على رسوله ﷺ معجزات ظاهرات ودلائل واضحات أكبرها وأعظمها القرآن الكريم ليخرجكم – جلت قدرته – من ظلمات الكفر وحمأة الشرك والضلال إلى نور الإيمان والهدى أو ليخرجكم رسوله ﷺ بما يرشدكم ويبلغكم ما أنزله الله عليه من الوحى ، وإنه – سبحانه – فى إنزاله الكتب وإرساله الرسل – هداية لكم – لهو – تقدست ذاته – شديد الرأفة عظيم الرحمة بكم حيث يسّر وأتاح لكم طريق الخلود فى الجنّة ساحة رضوانه ومستقر رحماته .

١٠ – (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

هذا تأنيب وتوبيخ لهم على تركهم الإنفاق والبذل فى كل خير بعد أن طلبه الله منهم وحثهم عليه وذلك بعد أن أنكر عليهم ترك الإيمان به – سبحانه – وبرسوله ﷺ

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٧٢

أى : اى سبب لديكم منعكم من إنفاق الأموال فى سبيل الله ـ تعالى ـ والشأن فيها أنه لايبقى لكم ولا لغيركم منها شيء، فأنفقوا ولا تخشوا فقرًا أو إقلالا ؛ فإنّ الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض وأنها كلها باقية له ـ عزّ وجلّ ـ فهو مهلككم فوارث أموالكم .

(لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ) هذا بيان لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت أحوالهم فى الإنفاق ، ذلك بعد أن أبان ـ قبل ـ أن للمنفقين جميعاً أجرا كبيرًا ، وجاء هذا للحث والترغيب فى تحرى ما هو أفضل وأكثر ثواباً من الأعمال ، أى : لايتساوى فى الفضل والأجر من أنفق ماله ، وبذل نفسه فى سبيل الله قبل فتح مكة ، أو قبل صلح الحديبية ، مع من أنفق وقاتل بعد الفتح (أُولَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ) أى : أولئك الذين كتب الله لهم السبق فى الإنفاق والقتال أرفع منزلة وأجل قدرًا من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا ، وإنما كان أولئك أعظم درجة من هؤلاء ؛ لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا عند شدة الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال لقلة المسلمين آنذاك وكثرة أعدائهم ، فضلاً عن أنه ليس هناك ما ترغب فيه النفوس من الحصول على المغانم والأسلاب ، فكان ذلك أنفع وأشق على النفس ، وفاعله أقوى يقيناً بما عند الله ـ تعالى ـ وأعظم رغبة فيه ، وليس الأمر كذلك بالنسبة للذين أنفقوا من بعد وقاتلوا .

(وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ) أى : وكلّ فريق من الفريقين من أنفق وقاتل قبل الفتح أو بعده بشّره الله ووعده الحسنى ، قيل : هى الجنة ، وقيل : هى أعم من ذلك كالنصر والغنيمة فى الدنيا .

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أى : وهو ـ سبحانه ـ بما تعملونه ظاهرًا وباطناً خيرًا أو شرًّا خبير به وعليم يجازيكم على حسبه ، فهو وعد للمؤمنين الطائعين ووعيد للكافرين والمذنبين .

وهذه الآية ـ على ما ذكره الواحدى عن الكلبى ـ نزلت فى أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وهى تشمل غيره ممن اتصف بذلك ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

ولذلك قال الله – تعالى – : (أُولَٰئِكَ) التى تدل على الجمع نعم هو أكمل من سواه فإنه أنفق قبل الهجرة وقبل الفتح جميع ماله وبذل نفسه مع رسول الله ﷺ لذا قال ﷺ « ليس أحدٌ أَمَنَّ علىَّ بصحبته مِنْ أبى بكر) – فرضى الله عنه وأرضاه – .

١١ – (مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَٰعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) :

هذا استفهام أريد به الحث والندب إلى الإنفاق فى سبيل الله ، والقرض الحسن : هو البذل بإخلاص ، وتحرى أكرم المال ، وأفضل الجهات ، وفى التعبير بالقرض ما يشعر بأنه عائد إلى صاحبه ؛ لأنه أخرج لاسترداد البدل ، أى : مَن ذا الذى ينفق فى سبيل الله حتى يبدله الله بالأضعاف الكثيرة ما بين السبع إلى السبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف وله مع هذا أجر عظيم وجزاء جميل ،حقيق أن يتنافس فيه المتنافسون ؛ لأنه مع زيادة مقداره هو – أيضاً – رفيع فى منزلته وهو الجنة .

وعن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح الأنصارى : يارسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرنى يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده ، قال : فإنى أقرضت ربى هذا الحائط ، وله حائط (بستان) فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها قال : فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح قالت : لبيك قال : اخرجى فقد أقرضته ربى – عزَّ وجل – وفى رواية قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ونقلت منه متاعها وصبيانها ، وأن رسول الله ﷺ قال : (كم مِن عِذْق رَدَاح[1] فى الجنة لأبى الدحداح) وفى لفظ (رُبَّ نخلةٍ مدلاةٍ عروقها من دُرٍّ وياقوت لأبى الدحداح فى الجنة)[2] .

---

(١) العذق : هو من التمر كالعنقود من العنب ، الرداح : المثقل بثمره .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٤٦ فقد ورد الحديث بنحوه .

(يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(يَسْعَىٰ) : يمضى مسرعاً .

(انظُرُونَا) : انتظرونا أو أمهلونا .

(نَقْتَبِسْ) : الاقتباس طلب القبس وهو الجذوة من النار ، والمراد : نستضىء ونهتدِ بنوركم .

(فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ)[1] : أوقعتموها فى بلية وعذاب أو أهلكتموها بالنفاق .

---

(١) الفتن : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ، واستعمل فى إدخال الإنسان النار . (الراغب الأصفهانى) .

(وَتَرَبَّصْتُمْ) : وانتظرتم بالرسول وبالمؤمنين شراً .

(وَارْتَبْتُمْ) : وشككتم فى أمر الدين .

(وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ) : وخدعتكم الأباطيل والآمال الكاذبة .

(فِدْيَةٌ) : فداء ، وهو ما يبذل لحفظ النفس عند النائبة والمصيبة .

(مَأْوَاكُمُ النَّارُ) : مقامكم ومنزلكم .

(هِيَ مَوْلَاكُمْ) : هى حق وأولى بكم ، أو هى التى تتولى أمركم .

(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : وساءت النار مرجعاً ومصيراً لكم .

التفسير

١٢ - (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ...) إلخ الآية :

الرؤية فى قوله - تعالى - : (تَرَى) بصرية ، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من تتأتى منه الرؤية ، أي : اذكر لهم - يا محمد - ذلك تفخيماً لشأن هذا اليوم وزيادة فى إدخال الإيناس والاطمئنان على قلوب المؤمنين ليفرحوا بما أعد لهم من السعادة والفوز ، اذكر لهم يوم ترى أنوار المؤمنين والمؤمنات تتلألأ من أمامهم وعن أيمانهم ليستضيئوا بها على الصراط .

أخرج ابن أبى شيبة وغيره والحاكم وصححه عن ابن مسعود أنه قال : « يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه يُطْفأُ مرة ويَتَّقِد أُخرى » ، وظاهره أن هذا النور يكون عند المرور على الصراط ، وقيل : يكون قبل ذلك ويستمر معهم إذا مروا على الصراط ، المراد : أنه يكون لهم فى جهتين جهة الأمام وجهة اليمين ؛ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، أما الأشقياء فإنهم يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم ، وهل هذا النور خاص بمؤمنى الأمة الإسلامية أو هو عام لكل مؤمن ؟ والظاهر أنه عام ، إلا أنه يمكن أن يقال :

أن ما يكون من النور للأمة الإسلامية أجل وأبهى من النور الذى يكون لغيرها ، (بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا) أى : بسبب إيمانهم تقول لهم الملائكة الذين يتلقونهم : لكم البشارة اليوم بدخول جنات تجرى من تحتها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ليست برديئة الطعم ، ولا بكريهة المذاق ، ولا تذهب بعقولهم كخمر الدنيا ، وأنهار من عسل مصفًّى ، وهم فى هذه الجنات خالدون فيها خلودًا أبديًّا (ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أى : وهذا الجزاء الذى سألوه وظفروا به هو الفوز الذى لا فوز بعده فلا يعظمه ظفر ؛ لأنه سبب السعادة الأبدية « فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ »[1] .

١٣ - (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ) :

أى : اذكر لهم ذلك اليوم الذى يعترى فيه المنافقين الخزى والهوان ، وقد فاز فيه المؤمنون وظفروا بالنور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، وفى هذه المقابلة التى تبين ما عليه كل من الفريقين ما يشعر بتعظيم شأن المؤمنين ، وبالحط والمهانة للمنافقين إذ يقولون فى هذا الموقف العصيب للذين آمنوا : انتظرونا وأمهلونا حتى نأخذ قبساً من نوركم نستضىء به فنحن قد منعناه وحرمنا منه وقد أصبحنا فى ظلمة فلا ندرى كيف نمشى فيها .

أخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللهَ يدعو الناسَ يومَ القيامةِ بأمهاتِهم سترًا منه على عباده ، وأمَّا عندَ الصراطِ فإنَّ اللهَ يُعطى كلَّ مؤمنٍ نورًا ، وكلَّ منافقٍ نورا فإذا استوَوْا على الصراطِ أطفأَ اللهُ نورَ المنافقين والمنافقاتِ فقال المنافقون : انظرونا نقتبسْ مِن نوركم ، وقال المؤمنون : ربنا أتمِم لنا نورَنا فلا يذكرُ عند ذلك أحدٌ أحدًا »[2] .

---

(١) سورة القمر الآيتان : ٥٤ و ٥٥

(٢) انظر كنز العمال ج ١٤ ص ٦٤٢ رقم ٣٩٧٦٦ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس ، وقال : رواه الطبرانى .

(قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَاءَكُمْ) أى : يقول المؤمنون أو الملائكة للمنافقين والمنافقات ـ استخفافاً واستهزاءً بهم ـ ارجعوا إلى المكان الذى قسم الله فيه النور ، فاطلبوا من هناك نوراً لكم فإنكم لا تقتبسون من نورنا ، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار ـ وذلك سخرية بهم أيضاً ـ إذليس إلى الدنيا رجعة ، أو يقولون لهم ـ على سبيل التبرى منهم والطردِ والإبعاد لهم ـ تنحوا عنا . (فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ) أى : فحيل بين الفريقين بحاجز له باب يفصل بين أهل الجنة وأهل النار ، باطن هذا السور وجانبه الذى يلى المؤمنين فيه الجنة التى هى مستقر الثواب والنعيم ، وظاهر هذا السور وجانبه الذى يلى المنافقين والكفار يكون من جهته العذاب الأليم فى النار التى وقودها الناس والحجارة .

١٤ ـ (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ) :

أى : بعد أن يصير أمر المنافقين إلى ضرب السور بينهم وبين المؤمنين ومشاهدتهم العذاب ينادون المؤمنين قائلين لهم مستنجدين بهم : ألم نكن معكم فى الدنيا نفعل كما تفعلون من نطق بالشهادتين وصلاة وصيام وزكاة وحج ونحو ذلك من شعائر الإسلام فيقول لهم المؤمنون : (بَلَىٰ) كنتم معنا فى الظاهر (وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ) أى : ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق وأوقعتموها فى بلية وعذاب ، وانتظرتم بالمؤمنين شراً ، وتربصتم بهم الدوائر والحوادث المفجعة ، والنوازل المهلكة ، وشككتم فى أمر دينكم ، ولم يتمكن الإيمان من قلوبكم ، وخدعتكم الأباطيل والأمانى الكاذبة ، وظننتم أن الإسلام لا يطول أمره ولا يمتد ظله ، حتى فاجأكم الموت وأنتم على باطلكم ، وخدعكم الشيطان وأدخل فى روعكم وقلوبكم أن رحمة الله واسعة ، وأن عفوه ومغفرته تشملكم فلا يعذبكم على ما بدر منكم ، ولكنه كذبكم وضللكم وهو اليوم يتبرأ منكم .

١٥ - (فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) :

أى : فى هذا اليوم الشديد القاسى لايقبل الله منكم - أيها المنافقون - فداء تحفظون به أنفسكم من نزول العذاب بكم ولو كان ملء الأرض ذهباً ومثله معه كما لا يقبل الله ذلك من الذين كفروا ، وفى هذا تيئيس وإقناط للكافرين من عفو الله عنهم إذ قد يتوهمون أن هذا العذاب الشديد والخلود الدائم فى النار إنما يكون للمنافقين فحسب جزاء خداعهم ومكرهم وإخفائهم الكفر وإظهار الإسلام ، والحق أن هذا جزاء من كفر بالله ولم يستيقن ذلك بقلبه غير أن المنافقين لهم الدرك الأسفل من النار .

(مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى : إن النار - وحدها - هى المكان الذى تأوون إليه وتقيمون وتخلدون فيه خلودًا أبديًّا إذ هى - لا غيرها - أولى وأحق بكم أو هى ناصركم ولا تنصركم إلا بإيلامها وسعيرها وهذا من باب « تحية بينهم ضرب وجيع » (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى : وقبح المرجع والمنقلب نار جهنم .

* (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾)

المفـردات :

(أَلَمْ يَأْنِ) : ألم يجيء ويحن الوقت ....

(أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ) : أن تلين قلوبهم وتنقاد لأوامر الله .

(وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) : وما نزل من القرآن الكريم .

(الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ) : اليهود والنصارى .

(الْأَمَدُ) : الزمن الممتد والغاية .

(فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) : غلظت وصلبت .

(فَاسِقُونَ) : خارجون عن حدود دينهم .

(يُحْيِي الْأَرْضَ) : يجعلها خصبة بالنبات والزروع .

(مَوْتِهَا) : جدبها وقفرها .

(الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ) : المتصدقين والمتصدقات الذين يبذلون أموالهم فى الطاعات من الصدقة ، أو المبالغين فى الصدق لله ولرسوله من التصديق .

(الْجَحِيمِ) : النار .

التفسير

١٦ ــ (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ، وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) :

هذه الآية استئناف ناع على المؤمنين الفاترين المتخاذلين تخاذل المنافقين وتثاقلهم عن أمور الدين ، ورخاوة هممهم فيها ، وتكاسلهم فيما ندبوا إليه .

رُوِىَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا مقلِّين مجدبين بمكة ، فلما هاجروا إلى المدينة أصابوا الرزق والنعمة ، وفتروا عما كانوا عليه من الحماس والنَّشاط لدينهم فنزلت .

وعن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ . ما كان بين إسلامنا ، وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنوات ــ وعن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ، وعن الحسن ــ رضى الله عنه ــ أما والله لقد استبطأهم ، وهم يقرءون من القرآن أقل مما يقرءون ، فانظروا فى طول ما قرأتم منه ، وما ظهر فيكم من الفسق ، وعن أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ أن هذه الآية قرئت بين يديه ، وعنده قوم من أهل اليمامة ، فبكوا بكاءً شديدًا ، فنظر إليهم فقال : هكذا كنَّا حتى قست القلوب .

هذا على أن الآية نزلت فى بعض المؤمنين المتكاسلين فى شئون الدين ــ وقيل إنها نزلت فى المنافقين بعد الهجرة بسنة ، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسى ذات يوم ، فقالوا :

حدثنا عما فى التوراة فإن فيها العجائب فنزلت : « الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ »[١]. إلى قوله – تعالى – : « لَمِنَ الْغَافِلِينَ » . فخبّر أن القرآن أحسن القصص ، وأنفع لهم من غيره ، فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله ، ثم عادوا فسألوه عن مثل ذلك فنزلت آية : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِىَ... »[٢] فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله . ثم عادوا فسألوا سلمان فنزلت هذه الآية (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ...) عن الكلبى ومقاتل . قال الآلوسى – بعد ماساق هذه الرواية : ليس بشىء .

وسواء كان نزولها فى المنافقين أو فى بعض المؤمنين المتخاذلين المتكاسلين ، فإنها استنهاض للهمم فى جانب العبادة ، وإيقاظ للفتور والتكاسل عن الطاعة ، وتنبيه إلى استدامة المواظبة عليها والنهوض لها ، والالتزام بها فى كل الأوقات والأحوال ، فلا يتكاسل عنها إلا منافق ، ولا يفتر عن أدائها إلا مذبذب ضعيف الإيمان ، ضال عن سبيل الله ، « وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً »[٣] .

والمعنى : ألم يجىء الوقت ، ويحن الحين للذين آمنوا أن يتمكن الإيمان فى نفوسهم ، ويخالط شغاف قلوبهم فتلين من جمودها وترق من قسوتها وغلظها ، وتتحرر من جاهليتها وجهلها فتخشع لذكره – تعالى – وتخافه وتطمئن به ، وتسارع إلى طاعته بالامتثال لأوامره ، والانتهاء عما نهى عنه من غير توان ولا فتور ، وتخشع لما نزل من القرآن الكريم وهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فالمراد بما نزل من الحق هو القرآن الكريم المشتمل على ذكر الله – أيضاً – ووجه عطفه على ذكر الله أنه جامع للأمرين الذكر والموعظة ، وأنه حق نازل من السماء ، ويصح أن يراد من الخشوع لذكر الله الوجل والخوف والانقياد التام وبما نزل من الحق زيادة الإيمان عند سماع القرآن الكريم – كما فى قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً »[٤] .

---

(١) أول سورة يوسف .

(٢) سورة الزمر من الآية : ٢٣

(٣) سورة النساء من الآية : ٨٨

(٤) سورة الأنفال من الآية : ٢

ومعنى (وَلَا يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلُ) أى : لا يكونوا مثل أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أوتوا الكتاب قبلهم ، وكان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم ، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم فطال عليهم الأجل وبعد العهد بينهم وبين أنبيائهم أو طالت أعمارهم ، ولم يعاجلهم الجزاء ، فاغتروا وقست قلوبهم ، وتحجرت وزال خشوعها وفشا فيهم الفساد فساءت أعمالهم ، واستمرءوا المعصية ، وغلب عليهم الشر فكثير منهم فاسقون خارجون على دينهم رافضون لما فى كتبهم .

١٧ - (اعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) :

نعت الآية السابقة على بعض المؤمنين فتورهم فى العبادة ، وعابت عليهم استهواء النعم لهم ، وانصرافهم إلى الترف والنعيم ، وجاءت هذه الآية تطمعهم فى الرجاء ، وتفتح لهم باب القبول ، ومداخل الرحمة حتى لايتملكهم يأس ، ولا يستولى عليهم قنوط ، ويعودوا لما كانوا عليه من النشاط فى العبادة ، والهمة فى الطاعة والحماس للدعوة ، وجرى فيها الأسلوب مجرى التمثيل لإبراز القدرة فى أكمل صورة ، وعرضها فى أوضح بيان حيث شبهت تليين القلوب الغليظة وإنارتها بالإيمان والذكر وتلاوة القرآن بعد الكفر والجحود والظلمة والوحشة - شبهتها - بإحياء الأرض بعد الغيث بالنبات وخصبها بالزرع والخضرة ونبض الحياة بعد الجدب والقفر والعفاء ، وهذا كله ترغيب فى الخشوع والخشية ، وتحذير من القسوة والغلظة .

والآية خطاب عام يتلقاه كل راغب فى الهداية ، طامع فى الرحمة من الذين أشارت إليهم الآية السابقة ومن غيرهم بياناً لمزيد فضل الله ، وواسع رحمته .

والمعنى : اعلموا معاشر المؤمنين أن قدرة الله فوق كل القدر ، وأن فضل الله عظيم على عباده يهبط على القلوب فيوجهها إلى الهداية ، ويحييها بالإيمان ، ويوفقها للطاعة بالذكر والتلاوة ، كما يحيى بالغيث الأرض الجدبة فتؤتى ثمرها من النبات والزرع ، وتصبح ندية خضراء بعد أن كانت مقفرة جدباء .

وقوله ـ تعالى ـ : (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) بعد هذا التمثيل. معناه : قد وضحنا لكم الحجج ، والبراهين ، التى من جملتها هذه الآيات . كى تعقلوا ما فيها ، وتعملوا بموجبها فتنعم حياتكم ، وتسعد آخرتكم .

١٨ ـ (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ) :

هذه الآية دخول على فضائل الأعمال ، وبيان حال العاملين ودرجاتهم ، بعد أن عرضت الآية السابقة مظاهر قدرة الله وفضله ، فى إحياء القلوب وإثرائها بالإيمان والخير بعد الشر ، والعطاء بعد الجفاء .

والمصَّدقون والمصَّدقات يمكن أن يراد بهم المتصدقون بأموالهم ، الباذلون لها عن طيب نفس ، وخلوص نية على المستحق للصدقة ، ويجوز أن يراد بهم الذين صدقوا الله ورسوله من التصديق لا من الصدقة .

والمعنى : إن المتصدقين والمتصدقات الذين بذلوا أموالهم فى وجوه الخير للمحتاجين ، وإغاثة الملهوفين ومساعدة المنكوبين ابتغاء وجه الله قرضًا حسنا خالصًا من الرياء ، بعيدا عن التفاخر ، والتكاثر ـ إن هؤلاء ـ يضاعف الله لهم أجرهم ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أكثر من ذلك لمن يشاءُ والله واسعٌ عليم ، ولهم أكثر من هذا أجرٌ كريم فى نفسه ثمين فى جوهره جدير أن يتنافس فيه المتنافسون لذاته ومن غير مضاعفة فكيف إذا ضوعف أضعافًا مطلقة .

١٩ ـ (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) :

الكلام فى هذه الآية يمكن أن يكون مبنيًا على جملة واحدة فحواها أن الذين آمنوا بالله ورسله فى منزلة الصديقين والشهداء فى أجرهم ونورهم ، ويقابل هذه الجملة جملة (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) .

ويمكن أن يكون الكلام مبنيًّا على أكثر من جملة على معنى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ جملة ، ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ جملة أخرى ، ويقابل ذلك ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ . ولعل الاحتمال الأول هو الأقرب إلى الفهم .

والمعنى : والذين آمنوا بالله، وأفردوه بالألوهية ، وخصوه بالعبادة وآمنوا برسله جميعًا لم يفرقوا بين رسول ورسول ، ولم يقولوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ولم يتعصبوا لرسالة بعد موت رسولها وبعثة غيره غير رسالة محمد ﷺ فإنها هي الرسالة الخالدة الخاتمة – هؤلاء فى منزلة الصديقين المبالغين فى الصدق السابقين فى الإيمان وفى كل خير ، وفى منزلة الشهداء الذين بادروا إلى الشهادة ، واستشرفوا إلى الاستشهاد فى سبيل الله – تعالى – لهم ما للصديقين والشهداء فى المنزلة من علو المرتبة ، ورفعة المحل ، ومن الأجر والنور – المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ وهذا فريق يقابل فريق الذين آمنوا بالله ورسله ، وضعا لفريق الجنة فى النعيم ، وفريق الكفر فى الجحيم « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ »[1] .

والمعنى : والذين وصفوا بالكفر ، والكذب والتكذيب ، وجحدوا آيات الله ، وكذبوا رسالات الرسل عنادًا وكفرًا أولئك أصحاب الجحيم المقيمون فيها ، الملازمون لها بحيث لا يفارقونها ، ولا يجدون منها مخلصًا ، ولا عنها معدلًا .

---

(١) سورة الأنفال : من الآية ٤٢ .

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤))

المفـردات :

(لَعِبٌ وَلَهْوٌ) : قيل : اللعب ما رغب فى الدنيا ، واللهو : ما ألهى عن الآخرة ، والمراد أنها عبث لا بقاء له ولا دوام .

(وَزِينَةٌ) : تتزين فى عيون أهلها ، أو يتزين بها أهلها .

(تَفَاخُرٌ) : تكبر وتعال .

(الْكُفَّارَ) : الزراع .

(يَهِيجُ) : يَجِفّ بعد خضرته ونضارته .

(حُطَامًا) : هشيمًا متكسرًا .

(فِى كِتَابٍ) : مكتوبة مثبتة فى علم الله ــ تعالى ــ أو فى اللوح .

(أَن نَّبْرَأَهَا) : أن نخلقها .

(تَأْسَوْا) : تحزنوا وتندموا .

(مُخْتَالٍ فَخُورٍ) : متكبر كثير الفخر .

التفسير

٣٠ ــ (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَزِينَةٌ ، وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) :

الأمر فى هذه الآية كالأمر فى قوله تعالى : (اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) موجه إلى كل من يتدبر الآيات ويتلقاها بفهم ووعى ، وينتفع بهديها ، ويسير على منهاجها وقد جاءت بعد بيان حال الفريقين فى الآخرة تكشف زيف الحياة التى اطمأن إليها أصحاب الجحيم ، وتشير إلى أنها من محقرات الأمور التى لا يركن إليها العقلاء فضلًا عن الاطمئنان بها وهى لعب لا ثمرة لها ، ولهو بشغل الإنسان عمَّا يفيده ، ويعود عليه بالنفع فى دنياه ، وزينة زائفة زائلة ، تستهوى الجهال ، وتغريهم بالمظاهر الخداعة التى لا ترفع خسيسة ، ولا يحصل به شرف ، وتفاخر بالأنساب البالية ، وتكاثر بالعدَد والعُدَد ، وجمع ما لا يحل له ، وغير ذلك من الأمور الفانية التى تزهو وتزدهر ، ثم لا تلبث أن تذبل وتخبو ، كغيث ينزل فى أرض جرز جرداء قاحلة فتخصب وتخضر بالنبات وتزدهر بالزرع ، ويمتلئ قلب

الزراع بهجة بها، ويغمرهم الفرح والبشر بمظهرها ونضارتها، ثم لا تلبث أن تجف بعد النداوة، وتصفر بعد الخضرة، ثم تصير هشيمًا جافًا وحُطامًا متكسرًا.

وإذا صح أن يتفاخر أو يتكاثر أهل المعاصى بالأنساب والجاه، أو الأموال والرجال فإن تفاخر المؤمنين ينبغى أن يكون بالتواضع، والطاعة، وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ «إنَّ اللهَ أوحَى إلىَّ أن تَواضَعوا حتى لا يبْغِىَ أحدٌ على أحد، ولا يَفْخَر أحدٌ على أحد».

وبعد أن بينت الآية حقارة أمر الدنيا تزهيدًا فيها، وتنفيرًا من العكوف عليها، أشارت إلى ما يلقاه الكافرون فى الآخرة من عذاب، فقال تعالى: (وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ) أى: بالغ أقصى درجات القسوة والشدة لأعداء الله، جزاءً وفاقًا لانهماكهم فى مفاتن الدنيا وملاهيها، واطمئنانهم إليها وفى الآخرة – أيضا – مغفرة عظيمة ورضوان من الله أكبر لا يقدر كنههما ولا يقادر قدرهما للمؤمنين الصديقين الذين أخلصوا لله الإيمان، وداوموا الصدق، وأحسنوا العمل فنالوا المغفرة والرضوان.

وفى مقابلة العذاب الشديد وحده بالمغفرة والرضوان إشارة كريمة إلى غلبة الرحمة، ومزيد الفضل، كما يشعر بذلك – أيضًا – إطلاق العذاب الشديد، وتقييد الرحمة والرضوان بأنهما من الله – تعالى.

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) أى: وليست الحياة الدنيا – وإن طالت وتعددت نعمها – إلا متاع الغرور لمن اغتر بها وانخدع، واطمأن إليها واشتغل بمفاتنها عن العمل لآخرته، روى عن سعيد بن جبير: «الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله – تعالى – وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة».

وقال ذو النون: يا معشر المريدين، لا تطلبوا الدنيا، وإن طلبتموها لا تحبوها فإن الزاد منها، والمقيل فى غيرها.

٢١ – (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ):

لما حقّر الله - تعالى - الدنيا، وصغّر أمرها، وعظم أجر الآخرة بعث وحث عباده على المسارعة إليها ، والمسابقة لنيل ما وعد فيها من المغفرة المنجية من العذاب الشديد ، ومن الفوز بدخول الجنة ونعيم الرضوان الأكبر ، فقال تعالى : (سَابِقُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ) .

والمعنى : سارعوا مسارعة السابقين لإخوانهم فى المضمار إلى أسباب مغفرة عظيمة من ربكم وتحصيل موجباتها من الأعمال الصالحة ، وإلى جنّة مبسوطة وافرة السعة عرضها كعرض السماء والأرض فكيف بطولها ؟ أعدها الله للذين آمنوا بالله ورسله عن إخلاص فى العقيدة ، وصدق فى الإيمان ، واجتهاد فى عمل الصالحات فشملهم بذلك الرضا ، وتمّ لهم الفوز ، مع جزيل الجزاء وكريم العطاء وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء تفضلًا وإحسانًا فى غير إيجاب عليه ، ولا حساب له ، والله ذو الفضل العظيم الذى لا ينفد بالعطاء ، ولا يخضع لغاية أو أهواء .

وهكذا تطلب الآية السبق إلى مقتضيات المغفرة ، ومؤهلات الفوز بالجنة لتنتقل بالعبد من التفانى فى الحطام الزائل والمتاع الفانى إلى الإسراع فى طلب النعيم المقيم ، والمتاع الخالد .

وقدمت المغفرة على الجنة فى الذكر ؛ لأنها تطهير يمهد لدخول الجنة تقديماً للتخلية على التحلية ، والمراد بقوله : (عَرْضُهَا) مساحتها فهى واسعة كسعة السموات والأرض ، وقيل : المراد بالعرض ما يقابل الطول وإذا كان العرض بهذا القدر فالطول أكبر كما هو المعتاد ، والمراد أن مساحتها واسعة .

٢٢ ، ٢٣ - (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) :

هاتان الآيتان : دعوة إلى التزام القصد والاعتدال ، فى تلقى الأحداث ، واستقبال النعم ، فلا تفرط النفس فى الأسى والحزن على ما يفوتها ، ولا يحملها تتابع النعم على البغى والطغيان ، فإن كل ما يصيب الإنسان أو يناله مقدر له بتقدير الله ، ومما سبق به الكتاب فى الأزل القديم . والله يحب من عباده أن يتلقوا المكاره بالرضا والصبر ، وأن يستقبلوا النعم بالتّطامن والشكر . ومن رضى فله الرضا والأجر ، ومن حمد فله المزيد والشكر .

والمعنى : ما أصاب من مصيبة ، وما وقع على الأرض من نوائب وأحداث كجدب أو نقص فى الثمار والزرع ، أو زلزلة أو غير ذلك مما يقع على الأرض أو فيها من كوارث ، أو فى أنفسكم ، من مرض أو كسور أو حروق ، أو فقر أو موت أو غير ذلك مما يجرى على الإنسان — ما أصاب من شىء من ذلك — إلا وهو مكتوب مثبت فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الله الأنفس أو المصائب أو الأرض — إن ذلك الإثبات فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ يسير سهل على الله لاستغنائه عن العُدَّة والمُدَّة ، وإن كان عسيرًا فى ذاته أو على غير الله . وقد أخبركم الله بذلك ، وأعلمكم به لكيلا تأسَوْا وتحزنوا على ما فاتكم من نعم الدنيا ، أو مما ترجون لأنفسكم مما تظنونه خيرًا ، ولا تفرحوا بما أعطاكم الله — تعالى — منها فإن من علم أن كلَّ شىء بقضاء وقدر ، يفوت ما قُدِر فواته ، ويأتى ما قُدِر إتيانه لا يُفْرط فى جزعه على ما فات ، ولا يُعظم فرحه بما هو آت .

وإذا كان فى طبيعة الإنسان أن يحزن عند مضرة تنزل به ، وأن يفرح عند منفعة تناله ، فإن الذى ينبغى هو القصد والاعتدال فى ذلك وأن يكون الحزن صبرًا ، والفرح شكرًا ، والمذموم من الحزن والفرح ، أن يكون الحزن جزعًا مجافيًا للصبر والرضا بالقضاء ، وأن يكون الفرح أشرًا مطغيًا صارفًا عن الشكر والثناء . ﴿ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أى : والله لا يحب كل متكبر على الناس متكاثر بأمواله ونعمه عليهم — وكل من فرح بحظ من الدنيا وعظَّم نفسه فقد اختال وافتخر ، وتكبر على الناس .

٢٤ — ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ ﴾ :

هذه الآية بيان لمعنى المختال الفخور وتوضيح لطبعه وسلوكه ؛ فإن المغتر بالمال المختال المتكبر يضن به غالبًا شحًا وبخلًا ، ويأمر غيره بذلك ، ولما كان البخل بالمال والدعوة إلى إمساكه إعراضًا عن طاعة الله ، وتنكبًا لطريق الهداية ختمت الآية بقوله — تعالى — : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

والمعنى : ومن يمسك المال معرضًا عن إنفاقه فى سبيل الله لا يحرم إلا نفسه ولا يضر غيرها فإنَّ الله غنى عن إنفاقه وهو — سبحانه — محمود فى ذاته لا يضره إعراض المعرضين

عن شكره بالتقرب إليه بشيء من نعمه ، وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق ؛ لأن ثواب نفقته إليه .

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(رُسُلَنَا) : الملائكة إلى الأنبياء ، أو الأنبياء إلى الأمم .

(الْبَيِّنَاتِ) : الحجج والمعجزات .

(الْكِتَابَ) : جنس الكتاب الشامل لجميع الكتب السماوية .

(بِالْمِيزَانِ) : الآلة المعروفة أو العدل .

(بِالْقِسْطِ) : بالعدل .

(بَأْسٌ شَدِيدٌ) : قوة ومنعة كآلات الحرب والقتال .

(وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) : مصالح تنفعهم كأدوات الصناعة والزراعة والبناء .

(ثُمَّ قَفَّيْنَا) : ثم أرسلنا بعد نوح وإبراهيم رسلنا متتابعين رسولًا بعد رسول .

(رَأْفَةً) : مودة ولينًا .

(وَرَحْمَةً) : تعطفًا وحنانًا وعند اجتماعهما يراد بالرأفة ما فيه درء الشر ، ورأب الصدع وبالرحمة ما فيه جلب الخير .

(وَرَهْبَانِيَّةً) : مبالغة فى العبادة ، والانقطاع إلى الآخرة ،وأصل معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان .

التفسير

٢٥ـ(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) :

فصلت الآيات السابقة فريق العصاة المكذبين ، وفريق الطائعين المصدقين ، وعرضت لوصف الدنيا وحقارتها وسرعة انتهائها ، وخوفت من الافتتان بها ، والاطمئنان لها إذ تناولت ذكر الجنة ونعيمها ، ونادت بالتسابق إليها ، والإسراع فى طلبها ، والتمتع بنعيمها ، وبقى المقام محتاجًا إلى تنظيم العمل ، وتفصيل السلوك الذى يباعد بين العبد وارتكاب المعاصى ، ويقربه من ربه ، ويؤهله للعمل عن تدبر ، ويوضح له طريق الخير ،وطريق الغواية ؛ليختار لنفسه حتى لا يكون له على الله حجة « فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا »[1] فجاءت هذه الآية تبين فضل الله ـ تعالى ـ على خلقه ،

(١) سورة الفتح من الآية : ١٠

بتتابع الرسالات ، وإنزال الكتب والميزان لإقرار العدل ، فلا يبغى أحد على أحد ، كما جاءت تبين إنعام الله بالنعم الجليلة التى تجمع لهم القوة والمتعة مع الرخاء والمنفعة .

وفى تخصيص الحديد بالذكر ، مقرونًا بالبأس والمنفعة لمحة إلى أن فيه من معدات القوة ما يحرس الأمن ويحفظ التوازن بين الأفراد والجماعات والأمم ، والحديد أصل وأساس لكل تقدم صناعى وحضارى ، ولذا كان جديرًا أن تسمى به السورة دون غيره من الأمور التى ذكرت فيها أو عرضت لها .

والمعنى : لقد كان فضلنا على الخلق ، وإنعامنا عليهم أن أرسلنا رسلنا من الملائكة إلى الأنبياء ، أو من الأنبياء إلى أممهم داعين ومرشدين وأيدناهم بالمعجزات ، والحجج الباهرات الواضحات التى تؤكد صدقهم ، وتحتم تصديقهم ، وذلك ليدعوا الناس إلى الخير ويوجهوهم للهداية وسلامة السلوك الذى يكفل لهم راحة دنياهم ، وسلامة آخرتهم ، وأنزلنا مع الرسل الكتب التى تحفظ رسالتهم ، وتشرح دعوتهم ، وتؤكد صدقهم من التوراة والإنجيل ، والقرآن ، وسائر الكتب والألواح والصحف السماوية التى نزلت مع الرسل ، كما أنزلنا آلة الوزن ليلتزم الناس بالعدل ، ويقوم عليه التعاون والتعامل ، ويمتنع الظلم والعدوان .

قيل : إن جبريل – عليه السلام – نزل بالميزان المعروف فدفعه إلى نوح – عليه السلام – وقال : « مُرْ قَوْمَكَ يَزِنُوا به » ، وقيل المراد بالميزان : العدل والمساواة بين الناس فى التعامل . (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ) أى : خلقناه كقوله – تعالى – : « وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ »[1] وذلك أن أوامره تعالى وقضاياه وأحكامه تنزل من السماء .

وقال قطرب : وأنزلنا الحديد أى : هيأناه لكم ، وأنعمنا به عليكم ، وقيل : نزل آدم – عليه السلام – من الجنة ، ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان ، والكلبتان ، والميقعة[2] ، والمطرقة ، والإبرة .

ومعنى (فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ) : أى : قوة ومنعة ؛ لأن آلات الحروب تتخذ منه – وهذا إشارة إلى احتياج الكتاب والميزان إلى قوة تحميهما ؛ ليحصل القيام بالقسط ؛ فإن الظلم من شيم

---

(١) سورة الزمر من الآية : ٦

(٢) من معانيها المسن الذى يحدد به .

النفوس ، ومن لم يدافع عن نفسه بسلاحه يهدم ، وقوله - تعالى - : (وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) أى : مصالح تنفعهم فى معاشهم وتيسير أعمالهم إذ ما من صنعة إلّا والحديد أو ما يعمل بالحديد آلتها ، وفيه إيماء إلى أن القيام بالقسط كما يحتاج إلى القائم بالسيف ؛ ليحفظ العدل ، يحتاج إلى ما به قيام التعايش ليتم التمدن الذى يحتاجه بقاء النوع .

(وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ) هذه الجملة معطوفة على محذوف يدل عليه السياق ، أو الحال ؛ لأنها متضمنة للتعليل .

والمعنى : فعل الله ذلك لييسر حياتهم ، وينفعهم ، ويقطع حجتهم ، وليعلم الله علمًا يتعلق به الجزاء ، ويترتب عليه الثواب والعقاب ليعلم من ينصره بالتوحيد والطاعة ، وينصر رسله بالتصديق واتباع ما جاءُوا به دون أن ينظر الله ويبصره .

(إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) أى : إنه الله قادر لا يعجزه أمر ولا يفوته هارب منيع لا يغلبه غالب ولا يدركه طالب وهذا تذييل جاء تحقيقًا للحق ، وتنبيهًا على أن التكاليف ليست لحاجته - تعالى - إلى نصرتهم فى إعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، بل إنما جاء ذلك ليصلوا بالتكاليف إلى الثواب ، فإن الله غنى بقدرته وعزته عمَّا سواه فى كل مايريده .

٢٦ -(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) :

هذه الآية نوع تفصيل لما أجمل فى قوله - تعالى - : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا » وتكرير القسم لإظهار مزيد العناية بالأمر ، ووجه اختصاص « نوح وإبراهيم » بالذكر لسبقهما ، واشتهارهما حتى سميا أَبَوَى البشر ، واقتران عهد كل واحد منهما بأحداث لها أبعادها فى تاريخ الإنسانية ، وشعائر العبادات .

أما نوح - عليه السلام - فقد حدث فى عهده الطوفان الذى يعتبر طورًا جديدًا فى مسيرة الإنسانية ، ولذلك قيل عنه : إنه آدم الثانى .

وأمّا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلحواره مع أبيه ، وقصته مع ولده وارتحاله إلى مكة به ، وما تبع ذلك من نبع ماء زمزم ، ثم ما كان من ابتلائه بأمره بذبح ولده وافتدائه ، وما بقى بعد ذلك ممّا قيل فى السعى بين الصفا والمروة ، وما شرع فى الأُضحية فى شريعة محمد ﷺ وحسبه فوق هذا كلّه أنه خليل الله .

والمعنى : ولقد كان من أخبار إرسالنا الرسل أن أرسلنا نوحًا وإبراهيم ، وأوحينا إليهما ، وجعلنا فى ذريتهما النبوة ، فكل الأنبياء من ذريتهما ، وأنزلنا عليهم الكتب المقدسة التى تحفظ شريعتهم ، وتفصل رسالتهم ، وقال ابن عباس المراد بالكتاب : الخط بالقلم .

ثم قال ـ تعالى ـ : (فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) أى : فمن هذه الذرية ، أو من المرسل إليهم منتفع بهذه الرسالة مهتدٍ سائر على النهج السوى ، مستجيب لدعوة رسوله ، ملتزم بالعمل بها ، وكثير منهم فاسقون خارجون عليها مجافون لها ، متنكبون طريق الهداية والطاعة .

ولم تقل الآية : ومنهم « ضال » مقابل فمنهم « مهتد » على ما يقتضيه ظاهر المعادلة مبالغة فى الذم ؛ لأن الخروج عن الطريق المستقيم بعد الوصول إليه بالتمكن منه ومعرفته أبلغ فى الضلال ، وأقبح منه على أن قوله ـ تعالى ـ : (وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ) يؤذن بغلبة أهل الضلال والفسق على غيرهم .

٢٧ ـ (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَآءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) :

لا تزال الآيات تتحدث عن إرسال الرسل بدءًا بنوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ ونهاية بعيسى ـ عليه السلام ـ وصولًا إلى بعثة سيد الرسل وخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ ،

وخص عيسى بالذكر؛لأن رسالته آخر الرسالات قبل رسالة نبينا ﷺ مع ما تحتويه من التنويه ببعثته ، والحديث عن رسالته مما يكاد يكون إرهاصًا بها ، ودعوة لها .

والمعنى : ثم أرسلنا بعد نوح وإبراهيم – عليهما السلام – وعلى أعقابهم رسلنا متتابعين رسولًا بعد رسول حتى انتهى الأمر إلى عيسى بن مريم – عليه السلام – وآتيناه الإنجيل تفصيلًا لرسالته ، وتصديقًا لدعوته ، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه (رَأْفَةً) أى : مودة ولينًا يجمعهم على الخير ، ويدفع عنهم الشر ، (وَرَحْمَةً) أى : تعطفًا ومحبة تجلب لهم المنافع ، وتقيهم المضار ، (وَرَهْبَانِيَّةً) أى : ورضينا منهم مبالغة فى العبادة بالانقطاع إلى الخلوات ، وتجنب النساء والشهوات وغير ذلك ، إنها رهبانية استحدثوها من عند أنفسهم والتزموها عن رغبتهم ما فرضناها عليهم ولا رضيناها منهم إلَّا ابتغاء وجه الله ، أو ما ابتدعوها إلَّا ابتغاء وجه الله ، وكان عليهم بعد ذلك أن يحافظوا عليها ، ويداوموا على عمل مقتضياتها لأنها نذر التزموه ، وعهد مع الله ينبغى الوفاء به ، ولكنهم قصروا فيها فما رعوها حق رعايتها وذلك بتقصيرهم فيما ألزموا به أنفسهم من عمل الطاعات ، وبأن بعض من أدرك منهم رسالة سيدنا محمد ﷺ لم يؤمن بها ولم يصدقها ، ولذلك جاء قوله – تعالى – : (فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) أى : فآتينا الذين آمنوا منهم إيمانًا صادقًا – صحيحًا راعى فيها تحقيق الرهبانية بالعمل الصالح والإيمان برسول الله ﷺ – آتيناه – أجره الذى يناسب إيمانه وعمله .

(وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) خارجون عن حد الاتباع ، بعيدون عن الإيمان الصحيح .

عن ابن مسعود قال : « كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار فقال : يا ابن أم عبد : هل تدرى من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم ، فقال : ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصى الله ، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم ، فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلَّا القليل فقالوا : إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ، ولم يبق

للدين أحد يدعو له ، فتعالوا نتفرق فى الأرض ، إلى أن يبعث الله النبى الذى وعدنا به عيسى ـ عليه السلام ـ يعنون محمداً ﷺ فتفرقوا فى غيران الجبال ، وأحدثوا رهبانية ، فمنهم من تمسك بدينه ، ومنهم من كفر ، ثم تلا هذه الآية ، ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ... ﴾ إلى آخرها ، ثم قال : يا ابن أم عبد ، أتدرى ما رهبانية أمتى ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : الهجرة ، والجهاد ، والصلاة ، والصيام ، والحج ، والعمرة »[1] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

(الَّذِينَ آمَنُوا) : المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب ، أو الذين آمنوا من أمة محمد ﷺ

(كِفْلَيْنِ) : نصيبين تثنية كفل ، وقيل الكفل : الضعف .

(أَهْلُ الْكِتَابِ) : اليهود والنصارى .

---

(١) انظر تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٢٧٥ تفسير قوله تعالى : « ثم قفينا على آثارهم » فقد ورد الحديث بنحوه .

التفسير

٢٨ - (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

تختتم السورة بهذا النداء الكريم للذين آمنوا تأمرهم بالتقوى ، وتعدهم بمضاعفة الأجر والنور الذى يهديهم ويحميهم من ظلمات الكفر والجهل ، ويصلهم بالمغفرة والفضل .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا بالرسل المتقدمة اتقوا الله ، وانتهوا عمّا نهاكم عنه ، واحفظوا أنفسكم من مهاوى الشرك ومهالك المعاصى ، وادخلوا فى طاعته ، وأخلصوا فى عبادته ، وآمنوا برسوله محمد ﷺ يعطكم نصيبين من رحمته ، نصيبًا لإيمانكم بأنبيائكم ، ونصيبًا لإيمانكم بمحمد ﷺ وتصديقكم برسالته ودعوته التى نسخت الشرائع السابقة . فلم يبق وجه للإيمان بها وحدها بعد بعثته - عليه الصلاة والسلام - دون التصديق برسالة محمد ﷺ (وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ) أى : يهيئ لكم نورًا تمشون به يوم القيامة حسبما نطق به قوله - تعالى - : (يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) ويغفر لكم ويستر عليكم ما أسلفتم من الكفر ، أو قدمتم من المعاصى ، والله واسع المغفرة عظيم الرحمة .

وعن مجاهد : نورًا أى : بيانًا وهدًى ، وقال ابن عباس : هو القرآن .

واستظهر أبو حيان كون الخطاب لمن آمن من أمة محمد ﷺ ، غير أهل الكتاب ، والآثار تؤيد ذلك . أخرج الطبرانى فى الأوسط : عن ابن عباس وابن أبى حاتم : عن سعيد ابن جبير ، قالا : إن أربعين من أصحاب النجاشى قدموا على النبى ﷺ فشهدوا معه أحدًا ، فكانت فيهم جراحات ، ولم يقتل منهم أحد ، فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة ، قالوا : يا رسول الله ، إنا أهل ميسرة ، فأذن لنا نجيء بأموالنا نواسى بها المسلمين فأنزل الله

ـ تعالى ـ فيهم : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ .. »[1] إلى قوله ـ سبحانه ـ : (أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » فجعل لهم أجرين ، فلما نزلت هذه الآية قالوا : يامعشر المسلمين ، أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم ، فأنزل الله ـ تعالى ـ : (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُوا اللَّهَ ..) الآية ردًا عليهم ، ومن لم يؤمن بكتابكم ، فله أجر كأجوركم .

وفى الكشاف أن قائل ذلك ، من لم يكن آمن من أهل الكتاب ، قالوه حين سمعوا تلك الآية يفخرون بها على المسلمين وعلى هذا فمعنى الآية : ياأيها الذين اتسموا بالإيمان اثبتوا على تقوى الله ـ عز وجل ـ فيما نهاكم عنه يؤتكم نصيبين من رحمته لإيمانكم بالرسالات المتقدمة عليكم ، وتصديقكم لرسلها ، وإيمانكم برسولكم محمد ﷺ كما فعل أهل الكتاب الذين آمنوا به ، فأنتم وهم سواء فى الإيمان بالرسل أجمعين .

٢٩ ـ (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) :

قال مجاهد : قالت اليهود : يوشك أن يخرج منَّا نبي يقطع الأيدى والأرجل ، فلما خرج من العرب كفروا به ، والآية تتعلق بمضمون جملة قبلها على تقدير : إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله (يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) .

(لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ) : (لَا) هنا زائدة أى : ليعلم الذين يؤمنوا بمحمد ﷺ من أهل الكتاب اليهود والنصارى أنهم لا يقدرون على شىء من فضل الله تحصيلًا لأنفسهم أو منعًا لغيرهم ، رزقًا أو هداية ، أو مغفرة وفضلًا ، وأن الفضل كل الفضل بيد الله وليس بأيديهم حتى يصرفوه عمن شاءوا إلى من شاءوا ، وأنه ـ تعالى ـ يختص بفضله من يشاء إذا شاء

---

(١) سورة القصص من الآيات ٥٢ و ٥٣ و ٥٤

وفى البخارى : حدثنا الحكم بن نافع قال : حدثنا شعيب عن الزهرى قال : أخبرنى سالم ابن عبد الله أن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول – وهو قائم على المنبر – :

« إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطًا قيراطًا ، ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ، ثم عجزوا فأعطوا قيراطًا قيراطًا ، ثم أعطيتم القرآن فعملتم حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين ، قال أهل التوراة : ربنا ، هؤلاء أقل عملًا ، وأكثر أجرًا ، قال : هل ظلمتكم من أجركم من شىء ؟ قالوا : لا . قال : فذلك فضلى أوتيه من أشاء » .

والله أعلم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٧٠ — ١٩٨٩ — ٢٥٠٠٤